



د. إيفلين كلينكل-براندت

رحلة إلى بابل القديمة

ترجمة : د.زهدي الداوودي



الكتاب للجميع



مجاناً مع جريدة الإتحاد



رئيس التحرير

فرياد راوندوزي

موبايل ٠٧٩٠١٣١٠٢٣٢

هاتف ٥٤٣٨٩٥٨-٥٤٣٨٩٥٤

E-mail:lttihadpress@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



٥٨

د. إيفلين كلينكل - براندت

رحلة إلى بابل القديمة

ترجمة: د. زهدي الداوودي

طبعة خاصة

توزع مجانا مع جريدة (الاتحاد)

دار المدى للثقافة والنشر

٢٠١٠

الطبعة الأولى

١٩٨٤

الإهداء

إلى أمي مع شكري

المؤلفة

البحث عن بابل

"وتصير بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين كتقليب الله سدوم وعمورة. لا تعمر إلى الأبد ولا تسكن إلى دور فدور. ولا يخيم هناك أعرابي ولا يربض هناك رعاة. بل تربض هناك وحوش القفر ويملأ البوم بيوتهم وتسكن هناك بنات النعام وترقص هناك معز الوحش وتصيح بنات آوى في قصورهم والذئاب في هياكل التنعم ووقتها قريب المجيء وأيامها لا تطول."*

هذا الدعاء المشؤوم الذي رفعه النبي أشعيا حول قدر ومصير العاصمة المشهورة بابل، والذي جاء في الكتاب المقدس، مع العديد من الأدعية والأقوال المشابهة، يعطينا صورة عن قيام وأفول تلك الإمبراطوريات التي كانت تعد رمزاً للعظمة والروعة إلى جانب الإثم والفساد. إن الكثير من الحكم والأقوال التي جاءت في الكتابات المسيحية المقدسة قد ذكرت هذا الاسم وتوغلت بعمق في تصوير حضارة الشرق القديم.

أجل، وحتى اليوم ثمة انطباعات مازالت حية، تركتها الثروة اللغوية للكتاب المقدس، مثل بابل الكافرة" أو "بلبلة الألسنة في بابل فمن خلال الكثير من الأحداث التاريخية - الحروب والفتوحات - كانت لمدينة بابل صلة وثيقة بمصير اليهود إن أحداثاً مثل تهجير اليهود من أورشليم إلى سجون بابل توضح لنا السبب الذي أدى باليهود أن يذكروا اسم بابل باستمرار وباستهجان في التوراة.

---

* اشعيا

وثمة حادثة أخرى مذكورة في الكتاب المقدس مرتبطة باسم بابل لها وقع كبير طبع في ذاكرة الناس، ألا وهي قصة بناء برج بابل والضوضاء التي سرت بين الناس حولها.

لم يكن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد عن بابل فحسب، إذ إن كتاب الإغريق ومن ثم الرومان أعطوا لهذه المسألة حقها ويعتبر هيرودت من أهل هاليكازناس من أشهر الرحالة المعروفين. الذين زاروا بابل وكتب بصدق وإسهاب عن سعتها وهندسة أبنيتها في عمله التاريخي القيم الذي أنجزه: "لكي لا ينسى مع الزمن ولا يمحى ما بنته البشرية، وما أنجزه الإغريق والبربر من عجائب تستحق التقدير والإعجاب، والأسباب التي أدت إلى أن يحاربوا بعضهم."

لم تكن في فترة زيارته ـ ما بين ٤٧٠ـ ٤٦٠ق.م ـ

في ذروة مجدها. وكان العديد من عجائبها قد استحال إلى خرائب أو توارى عن الأنظار. ورغم ذلك فإنه قد لاحظ بابل "ليس كمدينة كبيرة وحسب، إنما كمدينة رائعة لم يسبق له أن رأى مثيلها" لقد رأى هيرودوتس الحصون الهائلة وبرج بابل والمعبد الكبير وتمثال آله بابل الرئيس. رغم كل محاولاته بأن يكون موضوعياً ومخلصاً للحقيقة فإن كتاباته لم تخل من بعض الأخطاء التي ترجع في الواقع إلى إهمال مخبريه وجهلهم حقيقة الأوضاع، بالإضافة إلى جانب عدم تمكنه من اللغة. وكان يضطر أن يلتجئ إلى المترجمين ورغم ذلك فإن كتابه يعتبر حتى يومنا هذا أحد أهم المصادر في وصف المدينة.

إن بعض كتّاب الإغريق والرومان الذين أنتجوا فيما بعد أعمالاً قيمة، سواء أكانت قليلة أم كثيرة حول بابل، قد تاهوا في خضم سلسلة من الأحداث والوقائع. إن معظمهم لم يروا المدينة بأم أعينهم كما كان الأمر بالنسبة إلى (هيرودوتس)، ولذلك اعتمدوا على تقارير ومشاهدات وأوصاف الآخرين. وإن بعض هؤلاء قد رجع إلى هيرودوتس مقتبساً أوصافه ذاتها وبشكل مكنه من إعادة صياغتها من جديد وفق أسلوب أنيق، ومن هؤلاء (سترابو وديودورس).

ومع أفول حكم بابل وأهميتها، قل ذكرها، ففي بداية القرن العاشر عرف الجغرافي العربي (الإصطخري) بابل كقرية صغيرة بلا أهمية تذكر، وجدت في مكان كان فيما مضى أعظم مركز للحكم والقوة. لقد أصبحت بابل للمهتمين بالكتاب المقدس اسماً ورمزاً، إلا أنهم كانوا بالتأكيد لا يعرفون شيئاً عن حقيقة وجود هذه المدينة.

وفي القرون اللاحقة زار نفر قليل من الأوربيين الشرق الأدنى. وإذا ما وصلوا إلى العراق فإنهم كانوا إما غير مهتمين أو ليست لهم دراية كافية لشواهد الماضي. لقد شغلوا أنفسهم بكتابة مذكراتهم الشخصية أو كتابة تقارير حول حياة السكان العرب وجغرافية البلاد. وهكذا زار الرحالة الاسباني (بنيامين من تطلية) عام ١١٦٥بابل، ليس لأهميتها التاريخية ومشاهدة عجائبها، إنما أراد أن يحسب المجمعات اليهودية الواقعة على مقربة منها. ولذلك فإن وصفه المختصر ليس ذا أهمية. ويقول ضمن ما كتبه: "تستغرق الرحلة من بغداد إلى كيهياكين مدة يومين، وهذه هي البلدة القديمة ريسن بسكانها اليهود البالغين ٥٠٠٠ نسمة وبمعبدها الكبير.

وتستغرق الرحلة من هنا إلى بابل يوماً واحداً، حيث الخرائب التي تمتد ضمن مساحة ٣٠ ميلاً. وهنا يشاهد المرء قصر نبوخذ نصر المتهدم، والذي لا يمكن تخطيه خوفاً من الثعابين والعقارب التي تسكن فيه".

إن السكان العرب الذين سكنوا في ضواحي بابل، لم ينسوا المدينة القديمة، رغم قلة معرفتهم بحضارة بلاد ما بين النهرين وسكانها. لقد ألصقوا اسم بابل بالخرائب ولاسيما ببقايا قصر نبوخذ نصر الصيفي الذي تبقى شائعاً إلى يومنا هذا. واستخدمت الكلمة العربية "قصر" لبقايا القصر الملكي في المدينة.

نتيجة لما ورد في الكتاب المقدس بقي الاهتمام ببابل واكتشافها مستمراً في أوروبا وظلت قصة برج بابل تسترعي اهتمام الباحثين، وتعددت التصورات الخيالية حول ذلك مثال اللوحة التي رسمها (بيتر بروبكل الأكبر). ولم تتوقف محاولات البحث فيما بعد للعثور على البرج. أجل، لقد اعتقد معظم الرحالة بأنهم قد عثروا على البرج في خرائب برج معبد نبوفي بورسبا أو في بقايا زقورة عقرقوف بالقرب من بغداد.

وبواسطة الايطالي بيتر وديلافيلا جاءت إلى أوروبا عام ١٦١٦ أولى الشواهد الكتابية حول حضارة بابل القديمة، إذ شاهد خلال زيارته إلى بابل واور بعض الرقم الطينية بين الخرائب وهكذا استطاع أن يخبر معاصريه بما عثر عليه من كتبات على "شكل مسامير" وفي ١٧٦٥ شرع (كارستن نيبور) يبحث عن الآثار القديمة عبر رحلته إلى الشرق الأدنى والتي شاهد خلالها بابل. وتأكد بشكل صحيح بأن الخرائب الغنية الواقعة بالقرب من القرية العربية "الحلّة" إنما هي آثار بابل. لقد اعتبر نيبور بطبيعة الحال ـ كبقية أسلافه وأخلافه ـ بأن بقايا برج معبد بورسبا وملحقاته تقع ضمن منطقة بابل.

وفي السنوات المتعاقبة تغيرت الأوضاع السياسية. وراحت التجارة الأوروبية التي أخذت بالتوسع تحتاج إلى ضم البلدان العربية إلى سيطرة الرأسمال الأوروبي والأمريكي.

وجاء العديد من الأوروبيين إلى العراق سواء أكانت لمهمات سياسية أم اقتصادية. وأقاموا هناك لفترات طويلة. واقتضت الدوافع العديدة إلى أن يبحثوا في طول البلاد وعرضها وإلى جانب هذا توقفوا عند مناطق الخرائب للبحث عن الآثار القديمة.

وبهذه الطريقة بلغت شواهد حضارة ما بين النهرين أوروبا وراحت تجلب الاهتمام بشكل متزايد. وبقيت بابل كشأنها سابقاً نقطة التمركز. ذلك أنه قبل كل شيء تكرر ذكرها في الكتاب المقدس إلى جانب نينوى وأور كأقدم مدينة معروفة في تاريخ الشرق القديم. إن معظم الذين انشغلوا بالبحث عن الخرائب لم يكونوا من العلماء، بل كانوا من موظفي السلك الدبلوماسي والعسكريين ونحن لا يسعنا إلا أن نشكر جهودهم التي جاءت بالكثير من المعلومات الضرورية. إن أول عملية بالنسبة إلى خرائب بابل قد جرت من قبل (كلاوديوس جيمس رج) المقيم البريطاني المفوض لشركة الهند الشرقية في بغداد. ثم تبعه رحالة انكليز آخرون واصلوا عمله وانشغلوا بالتنقيب في التلال. وكانت الصورة تتكامل شيئاً فشيئاً عن أبعاد المدينة القديمة، التي كانت ترافقها أحياناً تقديرات خاطئة. ورغم ذلك فقد تمكنوا من تقدير ما كانت عليه المدينة من مساحة في الماضي.

ولما كان الكثير من البحاثة قد أخذوا بما كتبه هيرودوتس وبالغ فيه حول مساحة بابل وضواحيها، لذا أصبحت حقيقة انتماء الخرائب إلى بابل غير واضحة إلى أن بدأت التنقيبات المنتظمة. إن أحسن صورة عن منظر بابل القديمة تعكسها لنا الصور التي رسمها الفنان الشهير آنذاك (روبرت كير بورتر) بين سنتي ١٨١٧ و ١٨٢٠ الذي ملأت قلبه رهبة لا توصف عند مشاهدة أطلال بابل.

في معظم الأبحاث والكتابات التي جرت حول دراسة المناطق التاريخية في ما بين النهرين، لم يلتجئ أحد إلى التفكير في التنقيب المباشر بغية العثور على بقايا البنايات التي اختفت تحت الرمال وإخراجها إلى النور. كما وأن مثل هذه الحفريات لم تبدأ في الجنوب بل في المنطقة الشمالية حيث قام (باول أميل بوتا) لأول مرة عام ١٨٤٢ باستعمال المسحاة في خرائب نينوى القديمة. ولما كانت نتائج عمله غير

مشجعة فقد انتقل إلى خرائب خرساباد التي تحتوي على بقايا المدينة الملكية دور شروكين. وهنا تم العثور على منحوتات حجرية هائلة وأعمال جدارية أرسلت فيما بعد إلى أوروبا ووضعت في متحف اللوفر كأولى التماثيل التي تمثل حضارة الشرق القديم.

والآن فقد انجلت اللعنة التي كانت قد وضعت على خرائب ما بين النهرين. وتوالى المنقبون يجربون حظهم في البحث عن الكنوز في خرائب آشور. وكانوا يبحثون في الدرجة الأولى عن التماثيل الضخمة أو الأعمال المعدنية الثمينة، في حين كانوا يهملون العديد من الأشياء المهمة الأخرى وحتى أعمال البناء نفسها لم يعيروها اهتماماً وخلال فترة سريعة جرى التنقيب عن مجموعة كبيرة من القصور الملكية الآشورية التي كانت تحتوي على مئات التماثيل والمنحوتات الجدارية. ولقد استطاع (أوستن هنري لايارد) الذي يعتبر من أنجح المنقبين الانكليز أن يخرج إلى النور المصورات الجدارية من قصور كلخو (نمرود حالياً) والواقعة بالقرب من الموصل. وإن ما أضفى على اكتشافه من أهمية بالغة هو عثوره على ٢٥٠ رقمة طينية في مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال التي ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد. وبعد أن تم حل الرموز المسمارية كان بإمكان المرء أن يلقي عبر تلك اللوحات نظرات عميقة في تاريخ وجوهر الحضارات القديمة. وكان (لايارد) يأمل أن يكتشف في جنوب العراق أيضاً ما يشابه مكتشفاته في العواصم الآشورية وبدأ عام ١٨٥٠ بالحفر في أحد التلول التابعة لخرائب بابل. ولقد استطاع أن يعثر على أشياء صغيرة كالجرار والأختام وأنواع الفخار إلخ... ولم تتحقق أمنيته في العثور على التماثيل والمنحوتات الجدارية الهائلة كالتي عثر عليها في آشور. ورأى (لايارد) أيضاً مجموعة من قطع الطابوق الملون والمصقول بمادة زجاجية، وقد تناثرت بين الرمال في خرائب بابل. واستنتج من ذلك أن هذا الطابوق قد استعمل في حينه لتكسية الجدران.

ولم يكن الوقت قد حان للقيام بعمليات تنقيب دقيقة في الخرائب. ولم يفكر (لايارد) كما فعل علماء الآثار الألمان فيما بعد بإعادة جمع قطع الطابوق هذه للحصول على الأشكال الجدارية من جديد. وهناك منقبون آخرون بالإضافة إلى الامارد تركوا خرائب بابل بعد ان ثبطت عزائمهم في الحصول على ما أملوه من نجاح.

وعندما تقرر في ألمانيا القيام ببضع عمليات تنقيب في وادي الرافدين، عهد إلى

كل من (روبرت كولديفي وإيدوارد زاخاو) اختيار بعض الخرائب التي تصلح لتلك المهمة. وعبر رحلة استطلاعية بين عامي ١٨٩٦ـ ١٨٩٧ زارا القسم الأكبر من البلاد.

واقترح (كولوديفي) بعد ذلك في برلين بالتنقيب في تلال بابل، إذ إنه جمع هناك مثل (لايارد) مجموعة من قرميد المنحوتات الجدارية المصقول والذي يعود إلى تزينات ونقوش بناء ذي أهمية كبيرة. وبالإضافة إلى ذلك فإن اسم بابل وأهميتها كانا يسترعيان الاهتمام الكبير. إن الجمعية الألمانية ـ الشرقية التي كانت قد تأسست حديثاً من إعانات الناس الخاصة وتبرعاتهم والتي قامت بسند من قبل البلاط القيصري، أخذت على عاتقها مسألة تزويد مشروع التنقيب بالمال. وأصبح (روبرت كولديفي) المسؤول عن البعثة وسافر في ١٨٩٩ مع (فالتر أندريه) وعدد قليل من العاملين. واتخذت البعثة طريقها من حلب قاطعة الصحراء السورية مع إحدى القوافل إلى بغداد. وكان ينبغي على المنقبين، بالإضافة إلى معرفتهم في مجال اختصاصهم أن يكونوا رماة وفرساناً جيدين، إذ إنهم طالما كانوا يصطدمون بالبدو المحاربين. ويذكر (فالتر أندريه) في مذكراته الشخصية صوراً مليئة بالطرائف عن الرحلة التي استغرقت ٢٦ يوماً: "كانت قافلتنا تسير في المقدمة، وكانت تحتوي على ٣٠ـ٣١ دابة. وكانت الأجراس الضخمة المعلقة في رقاب البغال تحدث هرجاً لا مثيل له بحيث تصم الآذان. ولم يكتفوا بوضع جرس واحد فقط بل على الأغلب خمسة أجراس وكان علينا أن نواصل السير حتى الليل. ووصلنا في الساعة السابعة تحت جنح الظلام الداكن والمطر يهطل إلى خان عائم في الأوحال والمياه. وفي غرفة مصنوعة من الطين فرشنا السفرية ونمنا نوماً عميقاً جداً.

وفي اليوم الثاني والظلام مازال مخيماً خملت البغال والجياد. وكان ذلك في ٩ شباط حين اتجهنا إلى دير (حافة) عبر السهول الممتدة... وفي الليل كان كل شيء يتحول إلى جليد، حتى إن درجة الحرارة انخفضت ذات مرة إلى ٥.٤ درجة مئوية تحت الصفر: إلا أن الشمس كانت تعود وتشرق في اليوم الثاني فترتفع درجة الحرارة إلى ٣٠ درجة مئوية. أجل لقد استطاع هؤلاء بهمة عظيمة وصحة حديدية أن يجتازوا كل هذه الصعوبات وأن يصلوا بسلامة إلى بغداد. وبعد أن أقامت البعثة عدة أيام في بغداد اتجهت إلى بابل التي تبعد ١٠ كيلو متر، حيث احتاجوا إلى مسير ثلاثة أيام للوصول بقافلتهم إلى هناك.

كان(روبرت كولديفي) مهندساً معمارياً وجلب معه خبراته في حقل التنقيب

إلى بابل، إذ إنه سبق له أن ساهم في بعض عمليات التنقيب التي جرت في حينها في الشرق الأدنى. وهكذا عثر في بابل على ضالته المنشودة التي وهبها طاقته اللامتناهية وكل إمكانياته. وتحت إشرافه بدأت بابل حياة جديدة، وراحت الخرائب تتكلم وتبوح بأسرارها. لقد بدأت عمليات التنقيب في خرائب القصر التي تحتوي على أسوار وقصور نبوخذ نصر (شمال وجنوب البرج). وهنا دلت قطع الطابوق المصقول بأنه ثمة أبنية لها أهميتها.

كتب (كولديفي) في ٥ نيسان ١٨٩٩ حول ذلك إلى صديقه (بوخشتاين): "إني أحفر منذ ١٤ يوماً، والعملية بكاملها ناجحة جداً. أنت تعلم بأنني أريد قطع الطابوق للحصول على الصورة الجدارية للقصر، وهي الآن بين أيدينا. يتألف القصر من مجموعتين المجموعة الشمالية هي المزخرفة وأنا مهتم بهذا الجزء الآن. ثمة سور دائري ذو أبعاد هائلة. ويتكون السور من قشرة خارجية من القرميد المحروق بالإسفلت وقد حشي من الخلف برمال النهر... إن سمك القشرة القرميدية الخارجية يتكون من حوالي سبعة أمتار وفي داخلها تسعة أمتار من الرمل إن سمك السور كان إذن أكثر من ١٦م. إن مثل هذا الشيء لم يسبق لي أن حفرته من قبل"

لقد وضعت بابل في طريق منقبيها العديد من الصعوبات التي لم تكن معروفة بالنسبة إلى خرائب أخرى... ويصف (كولديفي) ذلك بوضوح "في الوقت الذي لا تتجاوز أكوام الأتربة في الكثير من الآثار القديمة ٣.٢ أو ٦ أمتار، فهي هنا ترتفع ما بين ١٢ أو٢٤ من فوق الأثر التاريخي إن سعة المدينة الهائل فيما مضى يتطابق وامتداد الخرائب اليوم بشكل تام".

وكان على المنقبين والعمال أن يتحملوا أيضاً عناء الطقس القاسي. وحتى في أشهر الصيف الحارة، حيث تبلغ درجة الحرارة ٥٠ درجة، كانت عمليات الحفر مستمرة. وكتب (كولديفي) حول ذلك إلى برلين في ١٨ حزيران ١٩٠٠: "إني أرجوكم أن لا تقلقوا أبداً على صحتنا، لقد استطعنا حتى الآن أن نتحدى الحرارة والطقس بأسلوب مناسب للعيش، لذا فلا داعي لإيقاف التنقيب في كل الأحوال... والعمال أيضاً يعملون بشكل جيد جداً، وهم يتناوبون فيما بينهم. إنهم يعملون ١١ ساعة يومياً، والعمل ليس بأسوأ مما هو عليه في الشتاء. إن أسوأ عملية تنقيب هو ما يجري في خرائب عمران، حيث الحفر العميق وكميات التراب الهائلة. ويصبح العمل بطيئاً عند البدأ في الحفريات العميقة التي تصل إلى عمق ١٠-١٢م نزولاً وصعوداً".

إن الجهود المبذولة لم تذهب عبثاً إذ أثمرت عن اكتشاف روائع في الفن

المعماري لها أهميتها كان بعضها معروفاً من خلال الكتاب المقدس وكتابات المؤلفين القدماء، ولم يكن بعضها الآخر معروفاً على الإطلاق. إن أعمالاً مثل الحدائق المعلقة" أو "برج بابل" أثارت اهتمام معظم الناس. على أن التنقيبات لم تكشف عن الأبنية الملكية كالمعابد والقصور وأسوار المدينة وحسب، بل تعدت كل ذلك إلى المناطق السكنية لعامة الشعب والتي تقدم صورة واضحة المعالم للحياة والحركة في هذا المركز التجاري. وقد أعطت النماذج الصغيرة التي لا تحصى المعلومات الوافية حول الحاجيات والكماليات المستعملة آنذاك. وأعطت المئات من القبور المعلومات عن مسائل الموت ومراسم الدفن في ذلك العهد. وتركزت تنقيبات (كولديفي) بالدرجة الأولى على بابل عهد نبوخذ نصر الثاني، أي العهد الذي يرجع إلى القرن السادس ق.م حيث كانت بابل في ذروة العظمة. ولقد رممت وجددت الكثير من الأبنية في عهدي الفرس والإغريق حتى القرن الثالث ب.م ولذلك يشاهد المرء مختلف عهود البناء وقد تراكمت فوق بعضها. ونتيجة التنقيبات اكتشفت أيضاً عصور ما قبل القرن السادس قبل الميلاد وقد تم الوصول في بعض مناطق التنقيب إلى طبقات ترجع إلى عهود الألف الثاني ق.م. إلا أن ارتفاع سطح الماء في أعماق بابل قد حال دون الوصول إلى طبقات بابل القديمة وما اكتشاف عهد حمورابي إلا نتيجة العثور على بعض القطع بشكل عرضي.

وبدخول القوات الانكليزية في الحرب العالمية الأولى بلغت التنقيبات الألمانية نهايتها. ولم يكن التنقيب قد جرى بشكل كامل في المساحة الهائلة للمدينة في هذا الوقت، بل إن الحفر كان قد اقتصر على الأماكن المهمة فقط. وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت جملة من التنقيبات الصغيرة في بابل من قبل مديرية الآثار العراقية مع ترميم بعض الآثار المهمة التي تم التنقيب عنها. ولا تزال بابل حتى يومنا هذا تجلب أنظار العديد من السياح إلى حرمها. إن اكتشاف المدينة برمتها يستوجب جهوداً قد تستمر سنين عدة.

إن صورتنا عما أعطته بابل القديمة من الانجازات الحضارية كانت ستصبح ناقصة جداً لو لم نكن قد حصلنا على نتائج التنقيبات التي جرت في مناطق الآثار الأخرى في الشرق الأدنى. إن الكثير من المدن ومناطق السكن قد اكتشفت عبر مسيرة القرن الماضي من قبل البعثات الأوروبية والعربية. وتوجد في متاحف العالم شواهد عن حضارة الشرق القديم. ومن المدن التي تم التنقيب عنها مدينة نينوى

والمنافس الرئيسي لبابل وعاصمة الآشوريين، كالحو، خرساباد وآشور. وفي الفترة ١٩٠٣-١٩١٤ أبدى المساعد السابق (الكولديفي)، (فالتر أندريه) جهوداً كبيرة في الحفريات بآشور.

ولقد ساعدت التنقيبات الفرنسية الناجحة التي تمت في تل حريري، (ماري القديمة) الواقع على الفرات الأوسط في اكتشاف قصره الملكي الذي كان معروفاً في العالم القديم - وفي إلقاء الضوء على معلوماتنا عن الحياة في بابل القديمة.

إن الحصة الكبرى من إحياء حضارة بلاد الرافدين قد جاءت بفضل مئات الألوف من المخطوطات التي كتبت على الطين والحجر والمعدن والتي عثرت عليها في البلاد خلال التنقيبات. إنها تفتح أمامنا صفحات التاريخ وترينا تصورات الناس القدماء وآراءهم ولقد سميت هذه الكتابة "الخط المسماري" نظراً لشبه علاماتها بالمسامير. إن قصة حل رموز هذه الكتابة تعتبر من أعظم الإنجازات التي أبدعها الفكر البشري. وقد تم حل الرموز نتيجة أبحاث عديدة ومحاولات العلماء الأوائل وما توصل إليه أخيراً في ١٨٠٢ مدرس الثانوية الألماني (جيمورج فريد ريش كروتيفيند) أن الخط المليء بالأسرار والذي أصبح معروفاً عبر التجارب العديدة التي جلبها بعض الرحالة منذ القرن السابع عشر قد أعطى العلماء الحلول لكثير من الألغاز. إذ إن هذا الخط كان يمتاز عن اللغات الأخرى بكونه قد استعمل في لغتين مختلفتين. إن حلول (كروتيفيند) قد اعتمدت بالدرجة الأولى على النصوص التي كتبت بثلاث لغات عثر عليها في المدينة الفارسية - بيرسي بولس. وكان هذا التدوين يحتوي على تاريخ سلالة أحد الملوك الفرس. وكانت اللغات الثلاث التي كتب بها التدوين المذكور هي: الفارسية القديمة والعيلامية الجديدة والبابلية. وكانت اللغة الفارسية القديمة بين تلك اللغات الوحيدة الملائمة لأن تكون مفتاحاً. إذ إنها كانت تحتوي على ٣٩ علامة. وراح (كروتيفيند) يستخدم ألقاب الملك الفارسي داريوس التي جاءت في مؤلفات المؤرخين الإغريق في التدوين واتخذ من اللغة الفارسية القديمة أساساً لمهمته. وكانت الفارسية القديمة قد عرفت عن طريق الأفيستا (مجموعة النصوص الإيرانية المقدسة). وقد استطاع بهذه الطريقة ان يتوصل إلى حل (١١) علامة والتي أصبحت فيما بعد نواة لحل الرموز الأخرى. إن التدوين الذي استعمل من قبل (كروتيفيند) يمكن ترجمته حسب معلوماتنا الحالية كمايلي: "داريوس، الملك العظيم، ملك الملوك، ملك البلدان، ابن هوستاسبين الأخمدي، هو الذي بنى هذا القصر"

وبمعزل عن (كروتيفيند) حقق الضابط الانكليزي (هنري راولبسون) نجاحاً في حل رموز اللغة الإيرانية القديمة عبر نصوص كبيرة. وقد ساعده في ذلك الاكتشاف العظيم للنصوص التي تؤرخ انتصارات (داريوس) على صخور بيستون. وأتم الكثير من الباحثين فيما بعد القراءات وفض قواعد اللغة. وهكذا أصبح بالإمكان أخيراً جعل اللغة الإيرانية القديمة أساساً لفك الرموز البابلية. وكانت ثمة مشاكل كبيرة أيضاً في الطريق، إذ إن الكتابة البابلية تحتوي على أكثر من ٣٠ علامة ولاسيما أن كلاً منها تحتوي على عدة تفسيرات. بالإضافة إلى أن أشكال أسماء الملوك تختلف عما استعمل في الإيرانية القديمة. إن العثور على كميات كبيرة من النصوص في بابل وآشور قد مكن من فك الألغاز. وقد ساهم في ذلك تبادل الخبرات والعمل المشترك على النطاق العالمي. وهكذا تمكن مثلاً الداغاركي (ايدوارد هنكس) أن يقر حقيقة هامة وهي أن الكتابة المسمارية البابلية تتكون من مقاطع - وليست حروفاً ولتمييز كلمات معينة تدمج هذه المقاطع فيتم التوصل إلى إعطاء كلمة ذات معنى. وبمرور الزمن تم ترتيب مجاميع اللغات السامية عبر العمل في حل تلك الرموز. وبالمقارنة بين اللغتين العبرية والعربية، تمكن الوصول إلى معرفة الكثير من الكلمات البابلية ومعانيها. ولقد أعطى البابليون أنفسهم البحاثة مواد تساعدهم في مهمتهم، إذ إنهم كانوا قد أعدوا لاستعمالاتهم اليومية قوائم تحتوي على كلمات ومعاجم أفادت الباحثين كثيراً في تفسير الكلمات. وهكذا استطاع العمل المشترك الذي جرى بلا هوادة حوالي منتصف القرن التاسع عشر من إيجاد أساس جيد لفهم ما سجل على رقم الطين من الكتابات المسمارية.

وفي العقود التالية تكامل البحث اللغوي بحيث أصبح بالإمكان التفريق بين الكتابات واللهجات المحلية المستعملة آنذاك في مختلف المناطق، ونظراً لذلك فقد أصبحت الكتابة المسمارية علماً بحد ذاته يدرس في العديد من جامعات العالم تحت اسم الآشوريات.

إن المحاولات التي قام بها العديد من الأجيال من علماء الآثار والآشوريات تمكننا من القيام برحلة توصلنا إلى بابل القديمة. إن معلوماتنا حول فكر وحياة الناس في فترة سحيقة من القدم إنما جاءت بفضل العمل الذي قام به أولئك بلا هوادة.

بابل وسكانها

كان العديد من الحجاج والتجار والمسافرين يتوجهون في القرن السادس قبل الميلاد إلى عاصمة زمانهم بابل، التي كانت تنتصب في ذروة المجد تحت حكم ملكها النشيط والمحب للبناء نبوخذ نصر. كانت المدينة تتراءى من بعيد بأسوارها العالية عبر سهول بابل الممتدة. وكان برج المعبد الكبير للإله مردوخ ينتصب كعلامة اهتداء للمسافرين. وعندما كان الإنسان يقترب من المدينة من الجهة الشمالية على امتداد الفرات، كان ينبغي عليه قبل كل شيء أن يجتاز الأسوار المنيعة التي بناها الملك لحماية بابل. إن نهر الفرات الذي ينبع من جبال أرمينيا كان يتحول في بابل إلى نهر عريض ويخترق المدينة محولاً إياها إلى قسمين غير متساويي المساحة وكانت الأسوار المستقيمة تمتد على شكل قائم الزوايا عبر شاطئ النهر. وقبل أن يبلغ المسافر هذه الحصون الدفاعية لبابل، كان عليه أن يختار خندقاً واسعاً وبوابة أحد الأسوار العالية المحصنة التي كانت تشكل في شمال المدينة زاوية حادة إلى أن تبلغ النقطة الجنوبية من بابل وتنتهي مرة أخرى عند النهر. لقد مجد نبوخذ نصر نفسه شخصياً في النصوص التي كتبها حول ما أشاده: "لكي لا تصل الهجمات الحربية إلى سور بابل أمكور - بيل، حيث إن أحداً من الملوك الأوائل لم يقم بمثله، قمت أنا بوضع سور يحيط بـ ٤٠ ذراع من الأراضي حول بابل وطوقت الجهة الشرقية من بابل بحصن منيع بحيث لا يمكن الاقتراب منه. لقد حفرت خنادقها وبنيت منحدراتها بالقطران والطابوق. وبنيت على شواطئها أسواراً عالية كالجبال ثم أدمجتها ببواباتها ولكي لا

تتمكن مقاصد الشر من تضييق الخناق على جهات بابل، فقد طوقت البلد بفيض من المياه المتلاطمة كأمواج البحار"

ووراء هذه الأسوار الخارجية كان على المسافر أن يمر ببناية ضخمة على سطح مستو علوها حوالي ١٨ متراً وقد بنيت على قاعدة من الطابوق. وكانت البناية هي القصر الصيفي للملك. كان الملك قد اختار مكاناً جميلاً جداً لأيام الصيف، حيث الجو المنعش قرب المياه وظلال النخيل الوارفة على امتداد الشواطئ. وكانت ضوضاء المدينة التجارية الصاخبة بعيدة عنه، إذ إن المساحات الواسعة الممتدة أمام أسوار المدينة الأصلية نادراً ما كانت مأهولة بالسكان. كانت تستعمل فقط للقنوات والشوارع المؤدية للمدينة. وعندما كان المسافر يتبع الطريق المحاذي للنهر يخفف من خطواته بصورة لا شعورية، ذلك أنه كان ينبهر حين تقع عيناه على الشارع الجميل العالي المزينة جوانبه بالصور الجدارية الزرقاء الصقيلة والأبراج العالية. والذي يؤدي إلى إحدى بوابات المدينة. إن المشاهد تتملكه الرهبة عند اقترابه من الأماكن التي أوجدت خصيصاً لأعياد رأس السنة ومواكب الآلهة التي تصاحبها جماهير الشعب. وكان قد سمى نبوخذ نصر هذا الشارع الذي بذل جهوده الخاصة من أجل تجميله وإظهاره بهذا المظهر المتألق بـ "ايبور - شابو" أي "دع العدو لا ينتصر" وكانت البوابة التي تحمل اسم الآلهة عشتار هي البوابة الوحيدة من بين بوابات المدينة الثماني التي زينت بالطابوق المصقول الجميل والصور الجدارية.

كان الأهالي يحدثون المسافرين عن أشياء غريبة عن الحصون والبوابات المزدوجة للمدينة. إن أي عدو ليس بمستطاعه بلوغ هدفه بدون خدعه لاجتياز هذه المواقع، حيث كان بمستطاع الألوف من المدافعين ردّ أي هجوم من على الأبراج والشرفات. قبل كل شيء كان ينبغي اجتياز خندق مائي واسع يليه السور الخارجي المنتصب المسمى "نيمتي - بيل" والذي كان سمكه ٣،٧٢م وكان بين كل ٢م ينتصب برج آخر بشكل متقاطع. وفي داخل هذا الحصن كان يقع الحصن الثاني والمسمى "أمكور - بيل" الذي كان أعلى من سابقه وله ضعف سمكه. وإلى جانب أبراجه الضخمة المتقاطعة كانت ثمة أبراج جانبية صغيرة. وكان القسم الذي يقع خارجاً على الجهة الشرقية من الفرات هو المدينة القديمة. وكان ثمة سور آخر ثالث يقع بين السورين العريضين الممتدين. وبهذا كان على الأعداء أن يجتازوا أربعة أسوار من ضمنها العقبة الخارجية مع العديد من القنوات المائية. إن الأسوار العريضة بأبراجها

المحصنة كانت تسمح لأكبر عدد من الوحدات العسكرية التي تدافع عن المدينة أن تتوزع بسرعة وتسيطر على الأماكن الإستراتيجية الحساسة.

وقد كان معروفاً عند سكان بابل أن هذه الأسوار لم تكن من عمل الملوك الذين حكموا آنذاك فقط بل إن الأسلاف وحتى الآشوريين الذين تسلموا زمام الحكم قد ساهموا في تلك الإنجازات. وكان على نبوخذ نصر أن يقوم بترميم وتجديد بعض الأقسام، إذ إن العوامل الطبيعية كانت تؤثر فيها بشكل مستمر. وعند إعادة البناء والتجديد كانت تظهر نصوص ووثائق عن الأسلاف الذين وضعوا حجر الأساس، الذي كان يعاد وضعه من جديد في اماكنه السابقة تبعاً لوصية واضعه الأول. وكانت هذه الوثائق الطينية التي لها أشكال اسطوانية تنقل لنا أسماء الملوك وأعمالهم البنائية العظيمة. وهكذا يسرد والد نبوخذ نصر مايلي عن بناء سور المدينة أمكور- بيل: "نبوبولازار، ملك بابل، الذي اختاره بنوومردوخ، هوانا. (ان) أمكور - بيل، الحاجز العظيم لبابل الذي استضعف أمامي، كان قد انهار. بدأت ببنائه من جديد من أقدم أساس بمساعدة الجيش والبلاد. وطوقت بابل من كل الجهات في وجه الرياح الأربع. وأنشأت ذروته كما كانت في البداية. أيها الحصن تكلم إلى مرودخ إلى سيدي وأعز ما لدي"

وثمة في متناول اليد ما يؤكد أن الملوك كان ينبغي عليهم دوماً أن يجددوا ما بناه أسلافهم، إذ إن معظم الأسوار كانت مبنية باللبن الذي يتكون من الطين الممزوج مع التين والقصب بعد صبه في قالب بسيط من الخشب وتركه في الشمس حتى يجف. وعند تشييد الأبنية الهامة كان يستعمل الطابوق المحروق لتغطية الواجهات الخارجية. وكان البناؤون يستعملون القار لربط طبقات الطابوق بعضها ببعض ثم كانت تغطى بطبقة من الطين. وكان يوضع بعد كل خمس طبقات حصير مصنوع من سيقان القصب ليعطي البناء خاصية المرونة ومنع تسرب الرطوبة. وبالنسبة إلى الملحقات التابعة لقصر نبوخذ نصر فقد كان البناؤون يستعملون الجص في تثبيت الطابوق. ولكي تكون الأبنية ثابتة ودائمة البقاء، كان الأساس يمتد كما قال نبوخذ نصر "إلى صدر العالم الأسفل" وهذا يعني أن الأساس يمتد عميقاً ويثبت بالإسفلت.

وكان نبوحذ نصر يريد بالطبع ككل ملك أن تبقى آثاره خالدة إلى الأبد تتعجب منها البشرية على مر الدهور.

وكما يسرد زوار بابل، فإن شارع الموكب وباب عشتار لم يكونا قد حصنا من

قبل الأسوار وحسب بل من قبل أبنية أمامية هائلة ذات موالع دفاعية أيضاً وبنيت في جزء واحد عدة أبواب للهجوم تعطي المدافعين أثناء العمليات الحربية إمكانية انتشار وانطلاق جيدين.

وعلى الفرات مباشرة، خارج السورين كان يقع الجزء الأكبر لمقاطعة قصر نبوخذ نصر مع البرج الذي يحمل نفس الاسم والذي كان الملك قد أحاطه بالأبهة والعظمة. وهنا كان يقع أيضاً متحف القصر الذي كان يثير دهشة المشاهدين. وكان الملك قد جمع فيه القطع الأثرية من العصور القديمة ومن مختلف المناطق. إن القصر الجنوبي الواقع وراء سور المدية الذي كان قد بدأ ببنائه نبوبولازار الذي رممه ووسعه فيما بعد نبوخذ نصر، كان قد وضع بالدرجة الأولى تحت تصرف مجلس البلاد والإدارة.

وعندما كان المسافر يترك وراءه باب عشتار، وكان شارع الموكب يؤدي به - ماراً بالقصر. وبشكل مستقيم إلى مقاطعة معبد إله بابل الرئيس مرودخ. وهناك كان يقع مركز مدينة بابل والذي كان نقطة جذب وملتقى للكثير من الحجاج والمسافرين الذين كان يدهشهم برج المعبد العالي. ومن هذا المكان كانت المواكب الكبيرة للآلهة تنطلق خارجة مشياً وبالعربات والقوارب حيث كانت البلاد كلها تساهم في عيد رأس السنة. وكانت مقاطعة المعبد كالقصر تطل بأسوارها الطينية العالية على هذا المركز الثقافي لمملكة بابل وهي تثير الدهشة والفضول. وكان المرء لا يسمح له عادة أن يطأ ساحة المعبد إلا للعبادة والقضايا المقدسة وفيما عدا ذلك فإن التواجد فيه كان مقتصراً على الكهنة وسدنة المعبد. تحيط البيوت السكنية التي كانت تزخر بالحركة والحياة بالأسوار التي تعلوها الأبراج. كان بمستطاع الإنسان أن يجد طريقه في بابل بكل سهولة، إذ إنه بخلاف مدن مابين النهرين الأخرى، كانت بابل قد صممت بشكل واضح يسهل الإشراف والملاحظة عليه وكانت الشوارع المستقيمة تقسم المدينة إلى زوايا قائمة. وهذا التخطيط الجيد للمدينة حال دون أن تتحول المدينة إلى متاهة من الأزقة والدروب الضيقة. وكانت الشوارع الواسعة تربط البوابات الرئيسية الثماني بمركز المدينة القديمة. وكانت تغطيها عادة أعداد هائلة من القوافل التجارية التي كانت تتوجه يومياً إلى بابل.

وفي أوقات الأعياد الدينية الهامة كان الناس يتوافدون من كل أنحاء البلاد إلى المدينة "التي كان لبنها الطيني سحيقاً في القدم" وكانوا يلتقون هنا في "مدينة البهجة" عند برج معبد الآله مردوخ.

وكـان لكل حي من الأحيـاء الأربعـة الذي يفـصله عن الآخر شـارع رئيس اسم معين مثل: "يد السماء" أو "بيت الحياة" وكان ثمة عدد لا يحصى من المعابد الصغيرة التي كانت تجري فيها مراسم العبادة من قبل سكان ذلك الطرف.

وكان كهنة معبد مرودخ، ايزانجيلا قد أعدوا دليلاً للمدينة ليهتدي به الحجاج والسياح وهو يحتوي على معلومات عن مواقع المعابد والهياكل والطرق القديمة والهامة وبوابات المدينة. وكان يتضمن أيضاً ٥٣ معبداً لمختلف الآلهة مع عدد هائل من الغرف الصغيرة خصصت للعبادة، تابعة لمختلف المعابد. ومن ضمن هذه المراكز الصغيرة للعبادة ٥٥ مركزاً يتبع مرودخ، السيد الأعلى للآلهة. وكانت ثمة هياكل بسيطة في المعابد والشوارع والساحات العامة أعدت لتقديم القرابين من قبل السكان مباشرة. وكان من الممكن تكريم كل من آلهة الحب عشتار وآلهة الطقس أداد وآلهة الطاعون تركال، وفي أكثر من ٣٦٠ هيكلاً. وكانت آلهة العالم الأعلى ـ والأسفل تحتاج أيضاً إلى تكريم عظيم من قبل السكان، حيث كان ذلك يجري في أكثر من ٩٠ مركز للعبادة.

لم تكن الأماكن التي كانت تحيط بمقاطعة معبد مرودخ نقطة التقاء دينية وحسب، بل كانت ثمة أمام أبواب المعبد المقدس أسواق المدينة الكبيرة التي كانت تحتوي على أنواع البضائع من أنحاء العالم وتسود هناك الحركة والضجيج والغبار وثمة خليط من روائح أنواع البضائع والمأكولات والتوابل. وفي المخازن الصغيرة أو المفتوحة في الهواء الطلق، حيث حجبت الشمس بقطعة من القماش، كان الباعة ينادون بأصواتهم العالية على بضائعهم.

لم يستطع المركز التجاري النامي للدولة البابلية أن يكتفي بأحد جانبي الفرات، لذا امتد على الجانب الآخر الذي راح يتوسع أيضاً وبسرعة. وكانت تربطه بالعالم الخارجي بوابتان محصنتان وباب صغير آخر، وكان بقدور المرء أن ينتقل من المدينة القديمة إلى الجانب الآخر عبر جسر معروف. وحكي للغرباء بأن نبوبولازار هو الذي أسسه وأن نبوخذ نصر قد جدده ليس غير. وبهذا يكون قد قطع النهر لأول مرة في التاريخ بجسر حجري. وكان الجسر يقوم على ثمانية أعمدة بنيت من اللبن المطمور في الإسفلت على شكل سفينة، عرض كل عمود تسعة أمتار. وكانت الأعمدة قد ثبتت بشكل خاص بألواح حجرية ضخمة كانت تشكل قاعدة الألواح المعر. وكان الجسر يقطع مسافة طولها ١٢٣ متراً. وفي الليل كان يرفع قسم من اللواح حتى

تتمكن الأعداد الهائلة من السفن العبور بصواريها العالية. وكان ثمة في داخل المدينة عدد من الأرصفة والمراسي، حيث تفرغ وتشحن السفن بمختلف البضائع. وكانت المدينة الجديدة تحتوي بالدرجة الأولى على الأحياء السكنية وكذلك على مجموعة من المعابد ومراكز العبادة الصغيرة والهياكل. وكانت قناة المدينة الجديدة التي تتفرع من الفرات وتلتقي بالقناة الرئيسية حول المدينة، تقسم قطاع الجانب الآخر بدورها مرة أخرى إلى قسمين غير متساويين. وفي الجنوب الغربي من المدينة الجديدة ـ خارج أسوار المدينة، كانت تقع أماكن الدفن الواسعة والمسماة في داخله بعث الأفول"

تحيط ببابل ـ باستثناء الجهة الشمالية للمدينة القديمة ـ مجموعة من البيوت السكنية التي كان سكانها يستغنون عن أسوار المدينة المحصنة، كان أولئك يضطرون إلى إخلاء مساكنهم والاحتماء بالمدينة خلال هجمات العدو. وكان أهل بابل ينظرون باستعلاء إلى هؤلاء الناس الذين يسكنون أمام البوابات وعلى الأراضي المنبسطة وراء الأسوار.

كان البابليون يعتقدون أن مدينتهم تقع في مركز العالم وهكذا صورت التعاليم البابلية الأرض كدائرة على الخريطة. وإذا كان بإمكانهم إلقاء نظرة على التاريخ، لعلموا بأن مدينتهم لم تكن تملك الدور القيادي في البدء، ولم تنتم إلى مواقع السكن السحيقة في القدم. إن موقع بابل كان قد سكن منذ عصور ما قبل التاريخ ولكن مراكز الحضارة البشرية الراقية كانت تقع في أعماق الجنوب من البلاد، حيث كان يسكن السومريون ـ الذين يحتمل أنهم قد نزحوا من الجهة الشرقية ـ على ضفاف الرافدين العظيمين دجلة والفرات. وكان نظام دويلات المدن هو السائد. كان الحاكم ـ الذي هو رئيس للكهنة في الوقت نفسه يقود الدولة دينياً وسياسياً واقتصادياً. وكانت هذه الدويلات نتيجة تنظيماتها العالية في مجال الإرواء الذي كان أساساً للزراعة وتربية الحيوان، وقد بلغت شأواً من القوة والأهمية. وفي جنوب وادي الرافدين بدأت أريدو، أور، نيبور، كيش ولكش كمراكز للقوة. ومع التطور الاقتصادي عاشت المدن السومرية نهضة حضارية ذات أهمية كبيرة جعلتها مهد البشرية، ففي حوالي بداية الألف الثالث قبل الميلاد كانت قد انتصبت في هذه المدن أبنية ضخمة تجري فيها مراسم العبادة للآلهة السومريين. ولقد أصبحت الكتابة السومرية التي اقتضاها تعدد مناحي الحياة الاقتصادية أول كتابة للبشرية. ووجدت أيضاً صناعة الفخار والأختام الاسطوانية طريقها من هناك إلى جميع أنحاء العالم.

إن ثروة البلاد المتحضرة على الفرات ودجلة وكذلك توفر أسباب الحياة الجيدة للناس قد أثرت تأثيراً كبيراً في جذب القبائل التي كانت تحاذي المناطق السهلية الغربية والمناطق الجبلية الشرقية. وعلى ذلك أخذت هذه القبائل بالنزوح إلى وادي الرافدين سواء أكان ذلك بشكل سلمي أم بشكل هجمات حربية. وقد أدى طموح التوسع لدويلات المدن إلى منازعات مسلحة، وعبر هذه المنازعات كانت تنشأ دول كبيرة، ولكن قصيرة العمر.

وعبر التخطيط الاقتصادي الجيد والنشاط التجاري والحروب الناجحة جمعت مدن مثل أور ثروات هائلة بين أسوارها وتشهد على ذلك الكنوز التي وجدت مدفونة في قبور الملوك من ذهب ومعادن نفيسة وأحجار كريمة. وقد وضع الاكد الذين احتلوا البلاد حوالي ٢٣٥٠ نهاية قاسية لدويلات المدن هذه. وبمجيئهم استلم الساميون الذين كانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع السومريين، الحكم السياسي لأول مرة. إن إنجازات الحضارة السومرية في الواقع راح يمتصها الاكديون مع الاعتناء بها وتطويرها بشكل أبعد. ولقد استطاع الحكام، عبر الحروب الواسعة أن يمدوا حدود مملكتهم أبعد فأبعد. وتحت ظل حكم (سرجون) الذي كان يوجه البلاد من عاصمته أكد، كانت الدولة تتضمن من الشمال آشور ومن الشرق عيلام وكانت جيوشه المنتصرة تطل على البحر المتوسط. وبهذا كان سرجون (ملك جهات العالم الأربع) و(مؤسس أول إمبراطورية عظمى في عالم الشرق القديم)، ولكن الدولة راحت تفقد بالتدريج أهميتها تحت حكم أخلافه. وعبر الحروب المتوالية ضعف الحكم وسار في طريق الزوال ولا سيما بعد الضربات التي تلقاها من قبائل الكوتيين الذين جاؤوا من جبال زاكروس. وبقي هؤلاء الغزاة البرابرة يحكمون بلاد مابين النهرين فترة طويلة. ولقد هدموا وحرقوا العديد من المدن. إلا أن الحضارة السومرية لم تكتب لها الإبادة. وقد حاولت بعض دويلات المدن أن تهز حكم الكوتيين. وحوالي ٢١٠٠ بات في حكم الانتهاء، طرد وحوش الجبال تحت قيادة أوتوشيكال من أوروك. وانتعشت الحياة من جديد في لكش تحت حكم الأمير كوديا المحب للعمران وبدأت الحضارة السومرية تزدهر من جديد. وراح أورنامو وسلالته ينشئان الأعمال البنائية في أور والمدن السومرية الأخرى، تلك الأعمال التي بقيت شواهد خالدة لمنجزاتهم.

إن غزو الجماعات الكبيرة من المهاجرين الساميين قد غير الأوضاع في جنوب بلاد الرافدين بشكل جذري. وهنا يكون قد انتهى عهد دويلات المدن السومرية

واختفت السومرية من مسرح التاريخ. وظهرت أسماء لحكام جدد ومدن جديدة راحت تقرر مصير البلاد. ماري، آشور وبابل، وهكذا سميت مراكز الحكم الجديدة. وبين هذه المراكز كانت المنازعات العديدة والقوة هما اللتان تقرران الأحقية في التسلط.

عندما حط سومر ـ أبوم، شيخ إحدى القبائل الرحل عصا الترحال في مدينة بابل التي كانت حتى ذلك اليوم غير معروفة، سمح للمدينة أن تحمل اسمها القديم بابيلا، إذ إن النازحين الجدد فسروه بـ "باب ايليم أي (باب الله) ومن هذا الاسم أخذ الإغريق لفظة (بابلون) الذي مازال يستعمل حتى يومنا هذا. إن الترجمة الأولى النابعة من اللغة السومرية هي ka-dingirra وتعني (باب الله).

كان سومر- أبوم هو مؤسس إحدى السلالات التي قادت بابل إلى ذروة الحكم وأرادت أن تجعل من بابل إحدى مدن الشرق الهامة. لقد كرس نفسه قبل كل شيء لبناء الأسوار للمدينة وقد جعل أخلافه ذلك نصب أعينهم. وأما النهضة الحقيقية لبابل فقد بدأت في الواقع في عهد حمورابي، الذي يعتبر من الشخصيات الرئيسية الحاكمة في تاريخ بلاد الرافدين الطويل. كانت مقدرته هائلة وسياسته بعيدة النظر وقد اعتمد على سياسة التحالفات والعهود ومعاهدات المساعدة المتبادلة والوعيد أيضاً. كانت لهذه السياسة الفصل الأكبر في نهضة بابل السريعة. وبعد ضم العديد من الإمارات التي كانت تتنازع مع بابل ركز حمورابي اهتمامه على المركز التجاري المزدهر الواقع على نهر الفرات وهو مدينة ماري "التي كانت حجر عثرة أمام طموحه السياسي" لقد أزاح حليفه السابق زءيمر يليم وبعد انتفاضة فاشلة تمت تصفيته وتدمير عاصمته ماري.

واضطر الملوك الآشوريون أيضاً إلى الاعتراف لحكم حمورابي والرضوخ له. وبذلك أصبح حمورابي حاكماً على البلاد من الخليج إلى الجبال الآشورية لا ينازعه في ذلك منازع. وقد أعقبت حروبه وفتوحاته العديدة حقبة طويلة من السلم والازدهار، استطاع خلالها حمورابي أن يوطد أركان دولته. وقد وجه اهتمامه بالدرجة الأولى إلى ازدهار الزراعة وشق القنوات والري وكذلك الاهتمام بالتجارة وطرق المواصلات. وبهذه الطريقة استطاع أن ينجز لمواطنيه حياة الطمأنينة والعدالة وقد عبر عن مساعيه هذه في مقدمة قوانينه الشاملة.

إن جهود حمورابي لم تقتصر على كتابة وتدوين المواثيق الرسمية والقوانين، بل إنه كان يساهم شخصياً وبنشاط في حل المشاكل التي كانت تعترض إدارة البلاد.

ولقد كان حمورابي ينبه في رسائله الموظفين المهملين ويذكرهم بالاهتمام بواجباتهم وكان يهتم بمواصلة البناء والعمران والمحافظة على المعابد وكذلك الاستماع إلى شكاوى الناس. وكانت رسائله العديدة إلى أعوانه في أنحاء البلاد تحتوي على إرشاداته وتوجيهاته حتى في صغائر الأمور: "قل إلى سين ـ أدينام هكذا يقول حمورابي: فور استلامك رسالتي هذه، دع جميع المشرفين على بيوت الآلهة وكذلك وارد ـ شماش، ابن ايريبام، راعي بيت لآله شماش والخاضع لك، يأتوا إليك بكامل حساباتهم، ثم أرسلهم لي في بابل، لكي يتم الاطلاع على حساباتهم. وعليهم أن يسيروا ليلاً ونهاراً حتى يستطيعوا الوصول إلى بابل خلال يومين"

لم تكن لأخلاف حمورابي قابلية إدارة دفة الحكم كما كان عليه في عهد الملك العظيم لذلك كانت البلاد تسودها القلاقل والاضطرابات. وقد أدت الانتفاضات التي قام بها بعض الأمراء إلى انهيار ملحوظ لقوة بابل. وفي حوالي ١٥٣٠ ق.م غزت الجماعات الحيثية القادمة من أواسط آسيا الصغرى بابل بشكل مفاجئ تحت قيادة ملكها مورشيلي فأسقطوا الدولة البابلية بشكل تام. وأحرقت بابل وصودرت كنوزها الثمينة التي أصبحت عبر هذا الاضطراب لقمة سائغة للمحتلين الجدد. وكذلك تمكن الكاشيون من ترسيخ حكمهم في بابل تحت قيادة رئيسهم أكوم ـ كاكريمه وراحوا يحكمونها مدة ٣٥٠ عاماً وفقدت البلاد الكثير من أهميتها، إذ إن مركز الثقل السياسي قد انتقل أثناء هذه الفترة إلى دولة الحيثيين في الأناضول والدولة الميتانية على الفرات الأعلى وإلى الدولة الآشورية التي راحت تسير رويداً رويداً في طريق العظمة. وراح هؤلاء يقفون جنباً إلى جنب مع المصريين الذين بسطوا حكمهم على سوريا وفلسطين واستطاعت بابل أن تلعب بين هذه المجموعة من القوى الكبرى دوراً صغيراً فقط، رغم أنها كانت قد اعتبرت في الدستور الرسمي كدولة مساوية لتلك القوى. وقد ازدهرت في تلك الفترة المراسلات الدبلوماسية التي كانت تجري بالخط المسماري بين البيوت الملكية ولم تكن محتويات تلك الرسائل تشمل المسائل السياسية وحسب، إنما اشتملت أيضاً مسائل شخصية بحتة. وهكذا يقترح الملك البابلي كاداشمان ـ كاربه على الفرعون امينوفيس الثالث الزواج من ابنته وكتب يقول: "انظر: إذا أنت يا أخي لا تعطيني ابنتك لأتزوجها وتكتب لي أنه منذ أقدم الأزمان لم تعط بنت ملك مصري لأحد، لماذا تقول هكذا؟ إذ إنك ملك وتستطيع أن

تفعل ما تشاء. فلما بلغتني كلماتك كتبت إلى أخي أن عندك بنت كبيرة، كذلك هنا نساء جميلات أرسل لي حسب اختيارك أي امرأة جميلة. من يستطيع أن يقول هنا أنها ليست بنت ملك؟"*

وقد اهتم أخلاف كاداشمان كاريس أيضاً اهتماماً كبيراً بتبادل الرسائل والهدايا مع الفراعنة وكان البابليون يبغون قبل كل شيء الحصول على الذهب وكانوا يعتقدون أن الذهب في مصر متوفر (كالتراب) وهكذا جاء في رسالة إلى أمينوفيس الرابع اخناتون ما يلي: إلى نيبخور أوريا، ملك مصر يتكلم أخوك بورنابورياش ملك كاردونياش (بابل): "أنا في صحة جيدة، أتمنى لك، لبيتك، لزوجاتك، لأطفالك، لبلادك، لكبارك، لخيولك، لعرباتك أعلى درجات الرفاهية. منذ أن تكلم أبي وأبوك مع بعضهما حول الصداقة الوثيقة تبادلا الهدايا الجميلة، وإذا كان أحدهما يتمنى شيئاً فإن الآخر لم يرفض طلبه الآن فقد أرسل لي أخي فقط قطعتين من الذهب كهدية وحيث إن الذهب متوفر بكثرة فأرسل لي كميات كبيرة كما كان يفعله والدك أما إذا كان الذهب قليلاً فأرسل نصف ما كان يرسله والدك. لماذا أرسلت قطعتين من الذهب فقط؟ إن عملي في المعبد كثير وقد تصدرته بنشاط فأرسل ذهباً كثيراً. وأنت أيضاً اكتب ما تحتاجه من بلادي دوماً حتى يتم إرساله إليك".

لقد كان بمستطاع المرء أيضاً أن يطلع على موضع الدولة البابلية بين القوى الكبرى عبر العلاقات السياسية المتبادلة والائتلافات في الشرق الأدنى. وكان البابليون يحاولون دوماً من خلال عقد المواثيق مع الدول القوية ضمان أمنهم الخاص. وهكذا سرعان ما أظهروا ميلاً كما دخلوا أيضاً في تحالفات مع الحيثيين. إلا أن هذه العلاقات كانت على الأغلب لا تدوم لفترة طويلة. ففي النصف الثاني من القرن الرابع عشر بدأت الصراعات المسلحة الكبيرة بين بابل وآشور. وعندما يستلم الحكم في آشور ملك قوي، يكون الوفاق بين الدولتين ملغياً أو منتهياً. وقد كتب توكولتي نينورتا الأول الذي وجه ضربته إلى بابل وأسر الملوك الكاشيين في تقاريره الخاصة مايلي:

"بعون سادتي آشور وأنليل وشماش والآلهة العظمى، وعشتار ربة السماء

---

* - اعتمدنا في هذا النص على النص المترجم من قبل الدكتور محمود الأمين في كتابه ،(الكاشيون) ١٥٢٠ - ١١٦٠ق .م . مستل من مجلة كلية الأداب - ج٦ - بغداد ١٩٦٢ - ص١٢ (ز. د)

بعون كل أولئك الذين كانوا يسيرون في مقدمة جيوشي. اصطدمت بكاشتيليا ملك بلاد الكاردونياش (بابل) وتقاتلنا مع بعضنا. ولقد تمكنت من إلحاق الهزيمة بجيشه وأرديت محاربيه صرعى على الأرض. وفي هذا القتال استطعت أن أقهر كاشتيلياش، ووضعت قدمي على قفاه كما لو أضعها على مسند، وجلبته أسيراً إلى آشور، ربي، واحتللت بلاد سومر وبلاد الأكديين بكامل حدودها. ووضعت إشارة حدود بلادي على البحر السفلي لشروق الشمس" ولم يكن هذا كل ما فعله، فبعد عام وبعد محاولة الانتفاضة التي قامت بها بابل، عاد توكولتي نينورتا بجيشه القوي:

هدم أسوار بابل، وضرب سكانها بالسلاح وتجاسر على ممتلكات ايزانجيلا وبابل بمصادرتها، وانتزاع الآله الكبير مردوخ من مكانه العالي وأخذه إلى آشور. ونصب ولاته في بلاد الكاردونياش.

وخضعت بابل إلى الحكم الآشوري بشكل تام، إلا أنها لم تنهزم إلى الأبد، إذ بعد مقتل توكولتي نينورتا الأول استطاعت بابل أن تستقل. وكان ثمة عدو آخر يتربص ببابل عبر الحدود الشرقية وهو (بلاد العيلام) التي استغلت ضعف بابل المؤقت فغزتها عدة مرات. وفي ١١٦٠ تمكن العيلاميون من طرد الكاشيين وبذلك اختفى هؤلاء نهائياً من تاريخ بلاد الرافدين وقد ألحق العيلاميون ببابل أثناء هجماتهم خسائر فادحة أيضاً، وصودرت البقية الباقية من النفائس وأرسلت إلى عيلام. ومن ضمن ما صودر مسلة قوانين الملك حمورابي الشهيرة التي جلبت إلى العاصمة سوسا كذكرى للنصر.

وبهذا التبدل الدائمي لميزان القوى، كان الوضع السياسي يتبدل أيضاً في بابل. لقد كانت قوة وأمن الدولة يتعلقان بشكل مباشر بقوة وإخلاص حكامها. لذا تكاد فترات التطور السلمية الطويلة الأمد تكاد تكون منعدمة وبعد الانهيار العنيف تمكنت بابل أن تنتعش مرة أخرى وبسرعة وتكسب أهميتها عبر وعي وطني قوي تحت قيادة حكامها الساميين وقد استغل البابليون الاضطرابات الموجودة في آشور لبسط حكمهم في تخومها. وأصبحوا هم وحدهم الذين يبتون في مصير سياسة الشرق الأوسط طوال خمسين عاماً. وأعيد نصب الآله مردوخ الذي أخذه في حينه توكولتي ـ نينورتا الأول ـ مرة أخرى في بابل.

إن التاريخ البعيد لبابل هو تاريخ للحروب، إذ إن الحروب المستمرة مع

الآشوريين لم تؤد إلى نتيجة نهائية. لقد احتل تيكلا تبلزار الأول ملك آشور مرة أخرى بابل، وهدم القصور الملكية فقط وأخضع المدينة إلى حكمه. ولكن خطراً جديداً راح يهدد كلا البلدين المتخاصمين، إذ إن الأراميين أخذوا يزحفون حوالي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد باتجاه الحدود البابلية والآشورية قادمين من مناطق سوريا وأعالي الرافدين - التي كانت قد احتلت فيما مضى من قبلها - وقد توغلوا داخل الحدود البابلية والآشورية وكان هؤلاء من القبائل السامية الرحل التي قدمت من السهول الصحراوية إلى البلاد الخصبة على النهرين. ولقد تمكن الآشوريون من أن يصدوا هذه الهجمات، إلا أن البابليين لم يصمدوا أمامها. وحوالي ١٠٥٠ ق.م. جلس ملك آرامي على عرش بابل. وأصبح الآراميون هم الذين يقررون مصائر بابل وسكانها.

وفي حوالي نهاية القرن العاشر ق.م. بدأت في آشور تحت قيادة ملوك أقوياء نهضة الامبراطورية العسكرية التي بثت الرعب نيفاً وثلاثمائة عام في الشرق الأدنى.

كان مبدأ القيادة الآشورية العسكرية هو الحرب بلا هوادة ضد جميع الأعداء. وكان السكان العزل يهاجرون من مناطقهم ويبادون، وكانت المناطق المحتلة تخرب وتنهب. لقد احتل أداد نيراري الثاني ٩٠٩-٨٨٩ ق.م بابل علماً أنه ألقاها على ما كانت عليه من مركز ثقافي وديني. إن الاعتراف بالسلطة الآشورية كان يكفي. واستطاع بعض الملوك أن يواصلوا حكمهم في بابل. ولقد اهتم الفاتح العظيم آشور ناصر بال الثاني أيضاً بمدينة العبادة التاريخية المعروفة. وحتى إن ابنه سلما نصار الثالث قد اتخذ في بيته كنة بابلية اسمها شامورامات التي لعبت دوراً هاماً في سياسة الدولة الآشورية. وقد قادت أمور الدولة بالنيابة عن ابنها القاصر أداد نيراري الثالث ولمدة أربع سنوات وبنجاح كبير. كان هذا عملاً ملحوظاً بالنسبة إلى امرأة آشورية لا تتمتع تقريباً بكامل حقوقها. وقد تحولت فيما بعد إلى أسطورة نسبت إليها مختلف الأعمال المدهشة تحت اسم سمير أميس. وكانت الإمبراطورية الآشورية مشغولة باستمرار بالحروب التي لا تحصى وذلك لتثبيت حكمها وتوسيعه. ولقد حاولت بمختلف الوسائل كسب ولاء البابليين حتى تتمكن على الأقل تأمين الحدود الجنوبية للبلاد. وقد اتبع مؤسس الإمبراطورية الآشورية العظمى تيكاتبلزار الثالث ٧٤٣-٧٢٧ ق.م عند استلامه الحكم في بابل وآشور، سياسة حكيمة، إذ إنه اعترف بالآلهة البابلية وقرر أن تقام لها مراسم العبادة رسمياً. وفي معبد ايزانجيلا أمسك

بيد الآله مردوخ. وكملك بابل حكمها باسم بولو. وبهذه الوسيلة استطاع أن يضع لنفسه بكل فخر اللقب التالي: "تيكلاتبلزار، الملك العظيم الملك القوي، ملك الجميع ملك آشور، ملك بابل، ملك سومر وأكد، ملك جهات العالم الأربع" ولقد اتبع أخلافه نفس السياسة أيضاً، إلا أن الأمراء الآراميين كانوا يسعون دوماً من أجل التربع على العرش البابلي ولقد اضطر سرجون الثاني الذي اغتصب العرش الآشوري أن يحرك جيوشه عدة مرات ضد الأمراء الآراميين في بابل إلى أن تم له أخيراً طردهم. واحتراماً للآلهة البابليين قدم القرابين للآله مردوخ وقام بحركة عمرانية واسعة في بابل وفي المدن الأخرى في جنوب البلاد.

كان ابن سرجون، سنحاريب شخصية لامعة وهو إلى جانب تحمسه للبناء والعمران والاهتمام بالتجديد التكنيكي والفني، كان محارباً شديداً ينشر الرعب بحروب النهب التي كان يقودها. كان قد بنى قصره في نينوى لـ"مثار دهشة كافة الشعوب" وكان يحمل اسماً (لا نظير له) وقد بدأت المنازعات خلال هذه الفترة في بابل مرة أخرى من قبل أمراء الآراميين على الحكم وذلك بمساعدة العيلاميين، واضطر سنحاريب مرة أخرى أن يهاجم هذا الإئتلاف ويقود جيشه لضرب العيلاميين، وبعد سنوات طويلة من الحروب الحامية، زحف سنحاريب عام ٦٨٩ إلى بابل واحتلها. ويقول في تمجيد أعماله:

"بأجسادهم ملأت ساحات المدينة الواسعة. وأخذت شوتسوبو ملك بابل مع أفراد عائلته وأشرافها إلى بلادي. ووزعت ثروات هذه المدينة من الذهب والفضة والمجوهرات وكل الممتلكات والأموال على أبناء قومي، فجعلوها أموالهم الخاصة. وكانت الآلهة التي تسكن هناك قد امتدت إليها أيدي قومي فحطمتها. وأخذوا ممتلكاتها. لقد هدمت المدينة وبيوتها من أسسها إلى جدرانها. لقد حرقتها بالنار وجعلتها قاعاً صفصفاً. لقد ألقيت بأسوار المدينة والأسوار الخارجية والمعبد والآلهة وبرج المعبد المبني من اللبن والطين وكل ما هنالك، لقد هدمت كل ذلك وألقيته في قناة أرآشتو. وحفرت في منتصف المدينة قنوات سلطت عليها المياه. لقد صنعت خراباً هو أسوأ مما يفعله الفيضان، حتى لا يبقى في الأيام المقبلة ذكر لآثار هذه المدينة ومعابدها وآلهتها. لقد خربتها بفيض من المياه وجعلتها مساوية مع الأرض" وجلب إلى آشور نصب الإله مردوخ وقرينته حيث بقيا هناك لفترة طويلة.

لقد كان ذلك أسوأ مصير عاشته بابل، في تاريخها الذي استمر قرون عدة.

واستطاعت أن تعيد نفسها من جديد بعد تلك المحنة بصعوبة كبيرة. كما وأن سنحاريب قد نال عقابه الشديد على ما فعلته يداه. وقد جاء ذلك في أحد النصوص التي كتبت فيما بعد:

"إن ملك سورى (أي آشور) الذي ألحق السوء بالبلاد، قد قتل - نتيجة غضب مردوخ - على يد ابنه بالذات، بقوة السلاح" إن الملك إذن قد قتل على يد ابنه اسرحدون الذي استلم العرش. وكانت آراء وميول اسرحدون تقف بالضد عما كان عليه والده. وقد حاول بمختلف الوسائل أن يعيد الحق إلى نصابه بالنسبة لما جرى لبابل من الأهوال. وقد بنى أسوار المدينة من جديد وبدأ بإعادة بناء ايزانجيلا وايتيمنانكي - معبد مردوخ وبرج المعبد - وجهز المعبد بالقرابين والكنوز وحاول أن يجعل الحياة طبيعية في المعبد. وحاول أن يعيد بناء المباني المهدمة من جديد في المدن البابلية الأخرى مثل نيبور واوروك. وتحت حكم اسرحدون تمكنت الامبراطورية الآشورية من التوسع، حيث استطاعت أن تضم إلى حدودها حتى أجزاء كبيرة من مصر. ونتيجة التوسع المترامي الأطراف للامبراطورية الآشورية أصبحت الدولة غير موحدة الأجزاء. وكان من الصعب توجيه أمورها من آشور، ولذلك كانت الحروب المستمرة ضرورية لإخماد حركات المدن والشعوب وإخضاعها من جديد، ولهذا السبب أرهقت الامبراطورية الآشورية قواها وأعدت حتمية انهيارها بنفسها. ولقد عاشت ذروة مجدها الأخير تحت حكم ابن اسرحدون، آشور بانيبال. ولقد تميّز هذا الملك القدير بسياسته القوية وكذلك باهتماماته الفنية. وقد جهز كأسلافه قصوره في نينوى بأعداد هائلة من المنحوتات الجدارية الضخمة. وبإرادة اسرحدون تم تقسيم الحكم بين كل من آشور بانيبال وأخيه شام - شوم - أوكين، إذ إن الأخير قد أصبح ملكاً على بابل. وقد استمر هذا التقسيم في الواقع لبضع سنوات فقط، دخل بعدها شام - شوم - أوكين في حلف قوي مع الدولة الآرامية ضد الملك الآشوري طامحاً في توحيد الحكم وقيادته بمفرده. وقد أرغم عمله الخطير هذا آشور بانيبال على تحشيد جيوشه ضد بابل. (ينطلق من فمه الكلام الحسن، وفي قلبه تكمن الفتنة. إن البابليين الذين كانوا أكثر عدداً من الآشوريين والذين كانوا من رعاياي المخلصين، استطاع أن يبعدهم عني بكلماته المهيجة). هكذا قال آشور بانيبال عن أخيه وأضاف:

(لقد استدعيت جيشي لحملتي السادسة، واتجهت في طريقي إلى شم - شوم -

أوكين. في سبار وبورسيا وكوتا وبابل. حاصرته شخصياً مع محاربيه واحتللت منافذ المدن وصرعتهم في المدينة والسهول بلا حساب. والبقية الباقية هلكها إله الطاعون والعوز والجوع مؤدياً بها إلى النهاية المحتومة.. آشور وسين وشماش واداد وبيل ونابو وعشتار ونينوى وآلهة سماء كيتورى وعشتار اربيلا وادار ونير كال نوسكو، كل هؤلاء الذين ساروا في المقدمة قد هزموا أعدائي وألقوا بشام - شوم - أكين أخي المعادي الذي خاصمني في النار الحامية وأنهوا حياته) وأبقى الملك على حياة المواطنين وحاول عبر البناء والترميم والحركة العمرانية الجديدة مساعدة مدينة بابل التي طالما امتدت إليها يد الخراب. وبعد وفاة هذا الملك العظيم والأخير راحت الامبراطورية الآشورية تسير بخطوات هائلة في طريق الأفول، ففي كافة أنحاء الامبراطورية بدأت الانتفاضات والحركات ضد الحكم الآشوري. وفي مقدمة ذلك القبائل الميدية التي راحت تترسخ في القسم الفارسي. وشكل الكيمريون خطراً كبيراً ضد آشور التي استنزفت طاقاتها فلم تستطع بعد صد هذه الانتفاضات والتمردات. وفي هذه الفترة حدثت بعض الانقلابات في بابل. وبعد مرور فترة تمكن الآراميون تحت زعامة نبوبولازار استلام الحكم. ولقد استطاع هذا الآرامي استغلال الوضع المتردي في آشور فاستقل وراح بدوره يتوجه بجيشه ضد العدو التقليدي القديم آشور التي كانت قد بلغت الحضيض. لقد تحالف نبوبولازار مع الميديين الذين كانوا تحت زعامة كياكسار (كي خسرو) ولقد أدى تحالفهم إلى أن يستولوا عام ٦١٢ ق.م. على العاصمة الآشورية نينوى والتي هدموها إلى آخرها. ولم تستطع المدن الآشورية بعد هذه الضربات إعادة مجدها. إن معظمها قد هجر وأصبح في طي النسيان. وورثت بابل إرث آشور وتم تقسيم الامبراطورية مع الميديين، حيث أخذت بابل منطقة بابل الوسطى وسوريا. وأعادت بابل مرة أخرى مركزها الهام في الشرق الأدنى وأصبحت على قدم وساق مع مصر. ورأى نبوبولازار أن واجبه الرئيسي يكمن في تجميل وتجديد مدينته بابل. وراح يبني المعبد المدرج إيتيمين انكي، آملاً الحصول على الرأفة من مردوخ لسلالته:

"أوه... مردوخ مولاي، انظر إلى أعمالي الصالحة برأفة وعبر أمرك الجليل الذي لا يتغير، دع ما فعلته يداي، يبقى قوياً إلى الأبد متيناً مثل آجر ايتيمنانكي وهكذا رسخ أسس عرشي إلى اليوم القاصي

وعندما توفي نبوبولاصر عام ٦٠٥ دفن في القصر الملكي في بابل. وكان

نبوخذنصر الذي خلفه على العرش آخر ملك له أهميته في تاريخ بابل. ولقد اضطر هو أيضاً خوض سلسلة من الحملات العسكرية لتثبيت مركز امبراطوريته. حيث استطاع بعد حصار طويل احتلال مدينة أورشليم وهدم المعبد. وقام بتجهيز القسم الأكبر من السكان اليهود - على الطريقة الآشورية - كأسرى إلى بابل. وراحت الامبراطورية البابلية تشمل مناطق فلسطين وسوريا حتى الخليج. وقد قاد نبوخذنصر حروبه هذه باسم الاله مردوخ، قال عن ذلك: (بمعونته السامية مررت ببلاد بعيدة وجبال نائية، من البحر العلوي إلى السفلي، بطرق رديئة بممرات مسدودة، حيث تتعطل فيها الخطوات ولا ترتاح فيها القدم، بشوارع مملوءة بالعثرات وطرق كلها عطش. لقد صرعت المتمردين وأخذت الأعداء أسرى لقد استبقيت على النظام في البلاد، ورقّيت الشعب إلى الفلاح). وفي خلال أكثر من أربعين عاماً من حكمه جعل نبوخذنصر من بابل ألمع مدينة في الشرق القديم، وتردد خبر روعة وبهاء أبنيتها في جميع أنحاء العالم.

كان مركز بابل التجاري يعطي زواره صورة ملونة لشعوب مختلفة، وفي المقدمة السكان الأصليون الذين عاشوا في بابل منذ أجيال عديدة، منذ أن وضع فيها أجدادهم عصا الترحال بالإضافة إلى الحجاج والتجار والضيوف الذين كانوا يقدمون من مختلف البلدان للإقامة في هذه المدينة الجميلة سواء لفترات طويلة أم قصيرة. ولقد جلبت الحملات العسكرية للملوك البابليين ولاسيما حملات نبوخذنصر، الألوف من الأسرى إلى بابل والذين كانوا يضطرون للعمل هناك كعبيد.

إن المتجول في الشوارع والأسواق يمكنه أن يتعرف ببساطة ليس على ممثلي مختلف أنواع الشعوب حسب، بل كان بإمكانه أن يأخذ انطباعاً عن مختلف أنواع الطبقات الاجتماعية أيضاً. وكانت الطبقة الدنيا في المجتمع البابلي تتكون من العبيد. كانوا يشتغلون في مختلف أنواع الأعمال، فقد كانوا يعملون كعمال مساعدين في بناء القصور الملكية أو الزراعة أو كأجراء عند التجار وأصحاب الحرف أو كخدم في البيوت. ويلاحظ أن العبيد كانوا يعاملون كشيء زهيد منذ عهد سومر أو كأية قطعة يمكن التصرف بها كيفما يشاء دون أن يحميها أي قانون، فمثلاً نرى ذلك في مجموعة قوانين حمورابي التي تؤكد بأن عقوبة العبد تختلف عن عقوبة الحر وقد نص كما يلي: (إذا فقأ أحدهم عين رجل حر، فقئت عينه. إذا فقأ أحدهم عين رجل عبد رجل آخر أو كسر عظمه، ينبغي أن يدفع لصاحب العبد نصف ثمن

الأخير). وكان هذا المبلغ يدفع بالطبع إلى صاحب العبد، إذ إن تشويه العبد كان يعتبر تقليلاً لثمنه. وكان العبد يعتبر بالنسبة لسيده أداة عمل ثمينة، ولذلك كان الاعتناء به من مصلحته الشخصية. وكان العبد الذي يعمل خادماً في أحد البيوت يعتبر إلى حد ما أحد أفراد العائلة. وغالباً ما كان يتخذ رب البيت عبدة كعشيقة أو امرأة إضافية والتي كانت تستطيع نتيجة إنجاب الأطفال ولاسيما الذكور أن تصل إلى مركز مرموق في العائلة. ولم يكن عدد المشتغلين من العبيد في بيت مواطن متوسط كثيراً. وكانت معظم الأعمال تقوم بها أفراد العائلة التي كانت تملك عادة ما يتراوح بين واحد إلى ثلاثة عبيد. وفي عهد نبوخذ نصر بنى الحرفيون وأصحاب المهن والمصالح ورشات إنتاجية كبيرة شغلوا فيها أعداداً كبيرة من العبيد. كما وتركز عدد كبير من العبيد في المعابد والقصر وكانوا يشتغلون هناك في مختلف الأعمال الوضيعة وكذلك في الأراضي التابعة للمعبد. ولم يلعب العبيد دوراً حاسماً في الإنتاج.

أين كانت تكمن يا ترى مصادر العبودية، وكيف حدث أن قسماً من الناس قد أصبحوا بلا حقوق وتابعين للآخرين؟ إن العبيد الأوائل كانوا من الأسرى الذين لم يقتلوا وجلبوا أثناء الحملات العسكرية. وكان عليهم أن يعملوا للأمراء المنتصرين أو المعبد ويدخلوا في ملكية أولئك. وكان من أحد البواعث المهمة للانتقال إلى صفوف العبيد هو الديون المتراكمة على الفلاحين الصغار والحرفيين الذين كانوا يبيعون نتيجة العوز إحدى البنات أو الأولاد أو الزوجة أو حتى أنفسهم بالذات. وكان ثمة تجار يديرون أسواقاً ضخمة من تجارة الرق فيحصلون بذلك على أرباح خيالية. وكانت الاستدانة تقود أيضاً إلى العبودية المؤقتة، فمثلاً إذا أراد أحد الفقراء أن يحصل على قرض سواء على شكل نقد أو أية مادة أخرى عينية، كان ينبغي عليه أن يعطي نفسه أو أحد أفراد عائلته إلى الدائن كضمان وكان عليه أن يدفع الدين خلال فترة محددة. وكان فائض الاعتماد يرتفع باستمرار - إذ كان بالنسبة إلى النقود ٢٪ والحبوب ٣٣٪ ولذلك كان على المدين أن يشتغل باستمرار ويجد حتى يتمنى له عتق نفسه وكان الدائن يستطيع أن يحتفظ بمدينه سليماً ويبيعه فيما بعد. وبهذه الوسيلة انحدر قسم كبير من الناس إلى طبقة العبيد. وغالباً ما حددت في بنود القوانين الفترات التي ينبغي أن تسدد خلالها الديون. وقد أصدر بعض الملوك مراسيم لتحرير الناس من مثل هذه القيود وقد جاء في المادة ١١٧ من مسلة

حمورابي ما يلي: إذا كان أحدهم مديناً وباع لذلك زوجته أو ابنه بالنقود أو أعطاهم للعمل، فينبغي أن يعملوا لمدة ثلاث سنوات عند المشتري أو السيد، وفي السنة الرابعة يجري الأمر بعتقه إلا أنه ليس واضحاً ما إذا قد طبقت تلك القوانين فعلاً وتحول أولئك العبيد إلى أحرار؟ ومن الأسباب التي كانت تؤدي إلى الانحدار إلى طبقة العبيد، العقوبات القانونية التي تمارس ضد بعض الخارجين على القانون فمثلاً إذا حدث أن أصيب أو قتل بعض الأشخاص في حالة عملية هجوم لصوصية فإن عائلة الجاني تسلم بكاملها كعبيد إلى المجني عليه كتعويض عما لحقت به من الخسائر. وبهذا يعاقب كل أفراد العائلة بسبب ما فعله أحد أعضائها. وكذلك في حالة السرقة كان على السارق أن يعوض ما سرقه، وذلك في البيت الذي سرقه. وكان الأطفال الذين يولدون في أحضان الرق يعتبرون أيضاً غير أحرار.

كان يطرأ على أسعار العبيد بمرور الزمن مختلف التغييرات، ففي عهد حمورابي كان قد حدد سعر الشراء قانونياً بـ "٢٠" شيل من الفضة أي ما يعادل سعر بقرة. ونتيجة ارتفاع الأسعار في عهد نبوخذنصر أصبح سعر العبد الواحد (٥٠) شيل من الفضة. وإذا كان العبد يتقن حرفة ما أو مختصاً في أحد الأعمال، كان على المشتري أن يدفع مبلغاً كبيراً جداً. وكان العبيد يحملون عادة علامة تميزهم عن الأحرار حتى يتسنى التعرف والقبض عليهم عند محاولتهم الهرب. وكانت هذه العلامة على الأغلب تختم بشكل لا يمكن إزالتها. وكانت ثمة قطعة تحمل اسم صاحب العبد وتعلق على رقبته كعلامة مميزة لعبوديته وكذلك كانت تحلق مقدمة الرأس لنفس السبب.

لقد كان من الصعب جداً على العبد أن يستعيد حريته أو يعتق. وكان أبسط طريق للتخلص من العبودية يجري عن طريق صاحب العبد نفسه وذلك بإرجاع الثمن كاملاً إليه وكان الثمن يمكن أن يدفع من قبل أفراد عائلته أو أن العبد نفسه يقوم بأعمال شاقة طويلة تعادل ذلك الثمن، إلا أن عتقه في هذه الحالة كان يتم شكلياً فقط. وفي عهد نبوخذنصر تحسنت الأوضاع بالنسبة إلى الرقيق إلى حد أنهم كانوا يستطيعون العمل كفلاحين وحرفيين أو تجار حتى يتسنى لهم دفع ثمن عتقهم. وكانوا في بعض الأحيان في وضع يسمح لهم بفتح المخازن والتوقيع على العقود. ولقد حصل هذا في الواقع لمصلحة أصحاب العبيد الذين كانوا يضمنون لأنفسهم حصة من أرباح ورأسمال عبيدهم. وبالنسبة إلى العبدة فإنها كانت تستطيع أن تعتق

بعد عقد الزواج من مالكها. وبعد الاعتراف الرسمي كان يعتبر الأطفال الذين تنجبهم أحراراً. إن البابليين الذين كانوا قد انحدروا إلى طبقة العبيد في الخارج كان ينبغي على عوائلهم (أو المدينة الأم أو المعبد) أن يشتروهم ومن ثم يعتقونهم. إلا أن القسم الأكبر ممن انحدروا إلى صفوف العبيد أو ولدوا عبيداً لم تتسن لهم في كل الأحوال إمكانية العتق من عبوديتهم بأية وسيلة كانت.

كانت هذه المجموعات البشرية الكبيرة التي لا تمتلك حقوقاً وأموالاً، تعيش مع بقية المواطنين الذين يملكون كامل الحرية في تسيير شؤون البلاد. وكانت بين هذه الفئة درجات تبدأ من ملاكي الأراضي الأغنياء إلى أبسط الحرفيين الأحرار. وكان الملك يجلس في القمة مع مجلس بلاطه وموظفيه الكبار والكهنة. وكانت نسبة كبيرة من أملاك البلاد تعود إلى هؤلاء.

وكان للجيش أيضاً في هذا المجتمع الذي يقود الحملات العسكرية بصورة دائمة مركز قيادي. وكان قادته وضباطه ينتمون إلى الشخصيات التي لها نفوذها الكبير. وكانت المجموعات الثلاث الكبيرة، البيت الملكي والكهنة والجيش تملك نفس المصالح، إلا أن هذه المجموعات كانت لا تشكل وحدة متكاملة ومتجانسة. كانت الصراعات وبسط النفوذ قائمة فيما بينها بشكل مستمر. ومن خلال هدايا الملك والشراء والتجارة الناجحة تمكن عدد من الأشخاص من إحراز مقاطعات واسعة من الأراضي، واستطاعوا بذلك أن يكوّنوا لأنفسهم مراكز بارزة في المجتمع البابلي وتمكن أيضاً الحرفيون والتجار الكبار بلوغ مراكز الغنى والوجاهة الاجتماعية. وتقف دون هؤلاء بقية المواطنين الأحرار: كالحرفيين والتجار والفلاحين ومستأجري الأراضي، كل أولئك الذين كانوا يحصلون على قوتهم اليومي بشق الأنفس. كان هؤلاء في الواقع أحراراً من الناحية القانونية، إلا أن الشروط الحياتية التي كانوا يعيشونها لا تختلف عما كانت عليه بالنسبة إلى العبيد ولم يكن طريقهم إلى العبودية بطويل وكانت هذه المراتب المختلفة داخل فئة المواطنين الأحرار قد تركت آثارها في القوانين. وقد جاء في قوانين حمورابي: (إذا صفع أحدهم آخر على خده وهو دون مرتبته، يكون عقابه في مجلس العدالة ستين جلدة. إذا صفع رجل حر، آخر حراً مثله على خده يكون عقابه دفع مَنٍ من الفضة. إذا صفع خادم أحدهم حراً على خده يكون عقابه قطع الأذن).

وبالإضافة إلى هاتين الطبقتين الاجتماعيتين الكبيرتين كانت ثمة طبقة أنصاف الأحرار. وكان أفراد هذه الطبقة مرتبطتين بالأرض أو الحرفة وكان عليهم دفع

الضرائب إلى القصر. وكان يتوجب عليهم أيضاً المساهمة في الحملات العسكرية. لقد كان هؤلاء يستطيعون من جهة أن يملكوا عبيداً وأملاكاً ولكنهم من جهة أخرى كانوا مرتبطين بأسيادهم، وبذلك كان مركزهم الاجتماعي يقع بين المواطنين الأحرار والعبيد.

وعند إلقاء نظرة على الحياة اليومية لسكان بابل في عهد نبوخذنصر، نرى فارقاً كبيراً في الحالة الاجتماعية، تعكسه لنا المجموعات السكنية والمهن والملابس والعادات. لقد كانت البيوت والمجموعات السكنية البابلية لا تختلف عن بعضها اختلافاً كبيراً من حيث المظهر الخارجي، إذ إن البيت البابلي المطل على الشارع، كان يتميز فقط بجدار بسيط من الطين طلي بالجبس بلا نوافذ أو تزويق. وكانت ثمة نتوءات وأفاريز بارزة هنا وهناك تتخللها مشاكي أشبه ما تكون بالمحراب. وكانت الأبواب البسيطة قد صبغت باللون الأحمر لطرد الأرواح الشريرة. وكانت الجدران المحيطة بالبيوت تبنى بصورة مشتركة. وكان على المرء عند دخوله أحد البيوت أن ينزل عدة درجات إلى الفناء، إذ أن مستوى الطريق العام كان أعلى من مستوى مساحات البيوت. وعند البدء ببناء جديد كانت نفايات وبقايا البناء القديم تلقى في عرض الطريق أمام البيوت حيث أكوام الفضلات والعظام على الطريق غير المبلط والكلاب السائبة تبحث عما تقتات به. وكانت النفايات تشكل مع الرمال التي تحمل الرياح طبقة جديدة تضاف إلى الطريق الذي كان يرتفع باستمرار.

وحين كان المرء يدخل بيتاً ما يمر لأول مرة ببهو صغير يجد فيه إبريقاً مملوءاً بالماء أعدّ لغسل الأيدي. وعبر غرفة أمامية كان المرء ينتقل إلى فناء مكشوف تنشر عليه الأشجار والنباتات المتسلقة ظلالها الوارفة. وكان بمستطاع المرء أن يدخل كافة غرف البيت التي كانت لا تحتوي على النوافذ وذلك منعاً لتسرب الحرارة إلى داخل الغرف. وكان النور يصل الغرف عبر الأبواب. كانت مساحة البيت وعدد الغرف يتعلقان بمكانة صاحب الدار ووضعه الاجتماعي وعدد أفراد عائلته. وكانت غرفة الجلوس الرئيسية تقع عادة في جنوب الدار بحيث يكون بابها باتجاه الشمال تجنباً لأشعة الشمس. وكانت البيوت الغنية تحتوي على غرفة استقبال وغرف للضيوف وكذلك مرافق خاصة للتواليت. وإذا كان رب الدار يملك في البيت ورشة عمل أو معملاً يدوياً فإن الطريق إليه يكون من فناء الدار مباشرة. ونادراً ما كان هناك باب خاص يؤدي إلى مدخل آخر. وبالرغم من أن ربة البيت كانت تطبخ في مواسم الحر

في الهـواء الطلق، فـإن الدار كـانت تحتـوي على مطبخ أيضـاً. إذ إن العمـل لم يكن مريحاً بالتـأكيـد في مطبخ لا يحتـوي على مدخنة. وكان الموقـد عبارة عن كوانين صنعت من القرميـد. وكان ثمـة موقد ثابت في فناء البيت. وكان يوجد في البيوت الثرية جداً حوض للاستـحمام وقـد دفن إلى النصف في الأرض وطلي بالإسـفلت. ولتصريف مياه المطر استعملت أنابيب كانت تؤدي المياه إلى الشوارع فالقنوات أو المجاري. وكانت ساحة الدار تغطى عادة بطبقة من الطابوق تأخذ شكلاً قمعياً وذلك لتصريف المياه من خلال فتحة في وسط الساحة. وأما أرضيـة الغرف فكانت تطلى عـادة بطبقة طينيـة. وعند توفر المياه الجوفيـة كانت هناك بئر تزود الدار بالمياه، وإلا فكان على العبـد أو نسـاء البيت نقل الماء من الآبار العامة في الشـارع أو من النهر مبـاشـرة. وفي المدن الكبـيـرة مثل بابل، كانت بعض الدور تحتـوي على طوابق عليـا تسـتعـمـل بشكل خاص غـرفـاً لنوم أفـراد العـائلة، وكان الوصـول إلى هذه الغـرف يتم عبـر سلم خشبي. وفي ليـالي الصيـف كـان أفـراد العـائلة ينامـون على السـطح تحت السـمـاء الصـافيـة حيث النسـيم المنعش. وكان السـقف يصنع من جذوع النخيـل تغطى بالسعف وسيـقان القصب والطين. وكان على صـاحب الدار أن يطلي سـقف بيتـه كل عام بالطين وبالنسبة إلى صنع بيت طيني كان يكلف غـالياً للفقراء المعدمين، ولذلك كانوا يكتفون بالألواح القصبية في ضواحي المدينة أو خارج الأسوار. كانوا يجمعون سيقان القصب من ضـفاف المستنقعات والأنهار ويعملون منـها حزمـاً يسـتـعـملونها كركائز للكوخ ثم يحيطونها بحصران من القصب فكانت على الأقل تقي حر الصيف وبرد الشتـاء.

كـان ترتيـب البيـوت بشكل عـام بسـيطاً واقـتـصـادياً ولم تكن هنالك حـاجـة للمبالغة في التأثيث، إذ إن الخشب كان بالنسبة إلى البابليين من المواد الخام النادرة. وكان معظم الأثاث والمسـاند والكراسي وحتـى الصناديق يتكون من القصب. ويرجح أن بعض العوائل الغنيـة كانت تملك صناديق ومقاعـد خشبيـة وأما الدولاب فلم يكن معروفاً. وعند الحاجة كانت توضع لوحة دائرية على ثلاثة مساند رئيسيـة وتستعمل كمنضـدة. وكـانت أرضـيـة الغـرف تفـرش بالحـصـران التي كـانوا يجلسـون عليـهـا القرفصـاء. وكانت جدران الغرف تصبغ من حين لآخر بألوان مختلفة مع نقوش بسيطة حتى يكون المكان مريحاً للسكن. ولحفظ الذخيـرة كانوا يسـتعـملون أواني فخارية كبيرة تدفن حتى النصف في الأرض. وكانت هذه الأواني تسـتعمل أيضـاً لحفظ المواد

الاستهلاكية اليومية والماء والمشروبات والعلف وعند الضرورة كذلك الملابس وحتى رقم الطين والوثائق العائدة لصاحب الدار. وكانت الأدوات المنزلية تتكون على العموم من الأواني الفخارية اعتباراً من الأباريق إلى الدوارق فالصحون على اختلاف أشكالها إلى جانب المصفاة والملعقة الكبيرة والسكين البرونزي والأمراس الحديدية والقدور النحاسية والطواحين الحجرية اليدوية والهاون. وكانت ثمة مواقد كبيرة لفحم الخشب حيث كانت تستعمل للتدفئة أيام الشتاء، ومصابيح طينية على اختلاف أشكالها تشتعل بالزيت وتستعمل للإضاءة.

وفي مثل هذا المحيط كانت العائلة تقضي أوقاتها وغالباً ما يسكن الأولاد مع زوجاتهم وأطفالهم في كنف الوالدين. وكان البيت عادة مملكة النساء اللواتي كن نادراً ما يغادرنه، إذ إن الرجال عند عدم تملكهم للعبيد يشترون الحاجيات البيتية بأنفسهم. وكان الرجل البابلي يكتفي بزوجة واحدة فقط بالرغم من أنه كان يملك حق اتخاذ نساء أخر كزوجات إضافيات وإنجاب الأطفال منهن. وكانت النساء يقضين أوقاتهن بتربية الأطفال وغسل الملابس والطبخ وإعداد الطعام وكذلك الغزل والحياكة. وإذا كان ثمة أغنام أو ماعز ودواجن في البيت فكن يقمن بالعناية بها. وكانت النساء يساعدن الرجال في الأعمال الزراعية لاسيما في مواسم الحصاد والبذار. وأما الرجال فكانوا يقضون قسماً من وقتهم خارج البيت، في العمل في السوق أو الحديث واللعب مع الأصدقاء والمعارف. وكانت المرأة في العوائل الغنية لا تمد يدها إلى الأعمال البيتية بل كانت تخدم من قبل الآخرين. وكانت تقضي معظم وقتها بالعناية بنظافتها وجمالها أو الالتفات إلى الأعمال المريحة. وكان على الوصيفة أن تقوم بـ (غسل أرجل السيدة) وحمل كرسيها إلى المعبد، وتمشيط شعرها وتسريحه ومساعدتها دوماً.

وللعناية بنظافة جسد وشعر الرجل والمرأة، كانت تستعمل زيوت تكسبهما النعومة والطراوة. وكانت الزيوت المعطرة غالية، إذ إنها كانت تستورد من الخارج. وكان يفضل عادة زيت السرو والآس والسدر لرائحته الجيدة. وللغسل كان يستعمل الصابون الذي يتكون من أوكسيد الصوديوم أو البوتاسيوم الممزوج بالزيت أو الطين الحر الجيد. وكان البابليون يتخذون من حين لآخر حمامات بخارية ساخنة وكان الرجال كما هو عليه الأمر بالنسبة إلى النساء يعتنون بتسريحة شعرهم وكانت الموضة في تغير مستمر. وكان للرجال أحياناً لحى طويلة وكان حلق اللحية وشذبها من الأمور

الاعتيادية. وبالنسبة إلى النساء كن يفخرن بتسريحتهن القصيرة المجعدة التي كانت تتموج إلى الأسفل وتشد بشريط واحد فقط. وكانت هذه التسريحة تلقى استحساناً كبيراً. وكان التجميل واستعمال العطور من الأمور اليومية وكان للنساء مختلف ألوان التجميل يحتفظن بها داخل أوعية طينية أو حجرية أو داخل أصداف زوّقت بنقوش فنية جميلة. وكن يستعملن الصبغ الأسود للحواجب والأهداب والأخضر لظلال العينين، والأحمر للشفاه والخدود. وكان من الأمور الاعتيادية أيضاً صبغ باطن اليد والأرجل بالحناء ورسم الوشم على الجلد. وكن يحملن حقائبهن النحاسية المعلقة بحلقة صغيرة بشكل دائمي، وكانت تحتوي على منقش وسكين وملقط وملعقة لتنظيف الأذن. ومن الأمور التي كانت لا تنسى مرآة اليد البرونزية والمشط المصنوع من الخشب أو العاج.

كانت ملابس الرجال والنساء متشابهة ولها نفس الطول وكان ثمة رداء فضفاض يصل إلى الركبة. وكانوا يرتدون - النساء أيضاً - ثوباً لامعاً مخططاً بأكمام قصيرة، وكان عند النساء يصل إلى الأرض وكان بالإمكان ارتداء سترة فوق هذا الثوب. وللوقاية من البرد كان يلقى على الكتفين معطف صوفي قصير. وكان يمكن للمرء حسب ذوقه أن يشد حزاماً مزخرفاً ويلم به أطراف ثوبه. وفي أثناء العمل كان الرجال يكتفون بارتداء صدرية قصيرة، إذ إن الحر يغنيهم عن الملابس الزائدة. وإن اختفى بعضهم فذلك من الأمور الاعتيادية. وأما الناس الأثرياء فكانوا ينتعلون صنادل ثبتت بسيور جلدية تحيط بأصابع القدم والكعب ويحتمل أنهم كانوا يرتدون الجوارب أيضاً. وللمسيرات الشاقة ولاسيما في الجبال كانوا يستعملون الجزمة العالية المربوطة بشريط. وأما غطاء الرأس فشكله يختلف من عصر إلى آخر. ففي عهد حمورابي يفضل اعتمار قلنسوة مدورة بجوانب عريضة ملتوية وفي فترة متأخرة يكتفون بلف عصابة حول الرأس. وكانت النساء المتزوجات يخفين شعرهن إذا خرجن إلى الشارع تحت منديل للرأس ويغطين وجههن بحجاب شفاف. وكان لهن الحق قانونياً بارتداء العباءة التي كانت بمثابة علامة تفرقهن عن الرقيق والبغايا اللواتي حرم عليهن ذلك كعقاب صارم. أما الحلي فكانت مرغوبة في كل العصور سواء عند الرجال أم النساء. وكانت الزينة ووزن الحلي تعكسان ما تتمتع به العائلة من يسر ووضع اجتماعي. أما أحسن هدية تقدم إلى امرأة فهي سوار مصنوع بدقة من البرونز أو الفضة وحجل مطعم بأحجار ملونة وكريمة أو قلائد من الخرز تتدلى منها قطع

مزخرفة وجميلة. وكان الرجل الغني يتميز بحليه التي يعتز بها كالخواتم والأسورة الذهبية والأساور أو الفضة للمعصم أو أعلى الذراع. أما الأقراط فلها أشكال مختلفة، اعتباراً من شكل الزورق البسيط إلى مختلف الأشكال المعقدة مثل عنقود العنب وما شاكل ذلك من النماذج. وكان الرداء يلم بدبابيس مصنوعة بشكل فني مزخرف وبخرز وأزرار مطعمة بأحجار ثمينة. وأما الفقراء فإنهم يكتفون بعدة أسورة نحاسية خفيفة وبسيطة للذراع مع قلائد تتألف من أحجار ملونة. وفي موادهم الغذائية فإن البابليين يفضلون الأكلات النباتية كالبصل والخيار والقرع والرقي والبطيخ. وكانوا يطبخون أنواع المرق من حبوب الفاصوليا واللوبيا والعدس والذرة والشعير. والمادة الرئيسية هي الخبز الذي كانت ربة البيت أو الجارية هي التي تعدها إذ إنهم يتذوقون الخبز طرياً ساخناً ويستعملون لهذا الغرض فرناً إسطوانياً (التنور) يدفن غالباً في الأرض. ومواد الوقود تتكون من روث البهائم المجفف إلا أنها لا تصلح لتسخين التنور ولذلك كان يستعملون الخشب والفحم الخشبي وبعد أن يسخن الفرن كانت أقراص العجين تلتصق بالجدار الحامي ثم تسد الفوهة بكوز فخاري. أما أقراص الخبز فرقيقة جداً، حيث كان بالإمكان عند الأكل قطعها إلى قطع صغيرة. وفي مقدمة الفواكه التي يتناولها البابليون التمر والرمان وكذلك الفواكه التي كان يستوردها التجار من بلاد آشور ذات المناخ البارد بعض الشيء، مثل التفاح والعرموط والعنب. وكانت اللحوم غالية لذلك لا تتواجد على المائدة على الدوام ومن اللحوم المتوفرة لحم الدواجن مثل الدجاج والحمام والبط والوز حيث أن بالإمكان تربيتها في البيت. ونادراً ما كانت الأغنام والماعز ولاسيما الأبقار تساق إلى الذبح. إذ يحتفظ بها لأيام الأعياد الكبيرة. وكانوا يعدون السمك للأكل على أنواع مختلفة فيأكلونه إما مقلياً أو مسلوقاً أو مملحاً ومجففاً. ومن كان محظوظاً في الصيد فإنه كان يستطيع أن يضفي على قائمة المأكولات في المطبخ لحوم الغزال والأرنب والظبي والحمار الوحشي.

أما منتوجات الحليب فمرغوبة جداً وتقدم على شكل جبن أو لبن مخثر. وكانت النساء يحضرن أنواع الأكلات اللذيذة ويضفن إليها العسل واللوز والفستق والزيت والتوابل. ولأيام الأعياد كن يعددن الحلويات والفطائر الحلوة المحشوة بالتمر والتين واللوز. ويشرب البابليون عادة الماء مع الأكل وكانت البيرة المصنوعة من الحبوب منتشرة أيضاً بشكل واسع وللبابليين خبرة عالية في صناعة البيرة. إذ يخمرون

حوالي ستة عشر نوعاً مختلفاً من البيرة وذلك حسب التنويع في إضافة المواد الخام مثل الجودر المقشور والشعير إلخ... ومن أنواع البيرة المعروفة، البيرة السوداء التي لعبت دوراً كبيراً بين المشروبات الروحية. وكانوا ينتجون من العنب نوعاً رديئاً من الشراب. أما الشراب الجيد فإنه غالي الثمن يستورد من ارمينيا وسوريا. ومن المشروبات الروحية المفضلة، شراب النخيل الذي يحصلون عليه من العصير الذي كان يسيل من ثقوب يعملونها في جذع النخيل والذي يتم تخميره خلال ثلاثة أيام أما نسبة الكحول فيه عالية. ولا يحتسي الرجال هذه المشروبات غالباً في البيت بل في الحانات. وكانت صاحبة الحانة على استعداد لبيع المشروبات. وتهيمن على أجواء هذه الحانات حياة اللهو والطرب. وكان الرجال يشربون حتى السكر التام "بحيث إن بطونهم كانت تنتفخ وهم يترنحون" وكوصفة ضد الآلام الناتجة عن الكحول كان يوصى بـ "سحق خمسة أنواع من بذور النباتات ومزج المسحوق بالشراب وتجرعه دفعة واحدة دون تذوقه"

يتكون طعام الفطور من وجبة دسمة، ولكن في الظهر حيث الحرارة الشديدة لم تكن الشهية قوية. وبعد تناول وجبة خفيفة ينام أغلب الناس لبضع ساعات.

أما الوجبة الرئيسية فيتناولونها مساء. وكانت العائلة تتجمع في أبرد غرفة بالبيت حيث تمتد الأيدي إلى الطعام الجاهز. وكان استعمال الملعقة والشوكة نادراً جداً. وكان المساء هو أحسن أوقات اليوم إلى البابليين، حيث إن الناس بعد الحر الشديد تعود لهم حيويتهم. أما الأطفال فيمرحون في الشوارع ويلعبون بالصنوج الطينية البسيطة أو بالقوس والنشاب. والرجال يلعبون الكعاب أو يتجمعون حول لوحة لعب بأحجار ملونة. والنساء يجلسن في فناء الدار سوية، وهن يتبادلن أطراف الحديث ويلففن المغزل بنشاط، وبين حين وآخر ترتفع في إحدى الحلقات المرحة أغنية تصاحبها ضربات على الطبلة، تتردد في الشوارع التي تجنح رويداً إلى الهدوء.

الحياة الاقتصادية

في بلاد بابل حيث تفتقر إلى كل أنواع المواد الخام، وحيث كان القصب والطين هما المادتين الرئيسيتين اللتين تستعملان بالدرجة الأولى. كانت الزراعة تلعب الدور الرئيسي وتشكل أساس حياة المجتمع. لم تكن الأمطار التي تسقط في أشهر قلائل بمعدل ١٠٠ ملمتر سنوياً لتكفي لإرواء ٥٠ درجة تؤدي إلى جفاف الأراضي وإبادة الزرع. وهكذا كان ينبغي على النهرين - دجلة والفرات - أن يلعبا دور واهب الحياة. كانت مصر هبة النيل، وهكذا كانت بابل تعيش بفضل الرافدين، اللذين ينبعان من جبال أرمينيا جالبين معهما المياه الغزيرة طيلة أيام السنة. وكشرط لتحويل فيضانات دجلة والفرات إلى الخير والبركة، كان العمل هو الذي ينبغي أن يعم وينبغي أن يتحقق بشكل دائمي وبصورة مشتركة. لقد تفرعت قنوات هائلة من الأنهر. وكانت مناسيب المياه تنظم بسدود ونواظم. وأي إهمال في هذه الشبكة الإروائية يؤدي إلى تخلف في الإنتاج أو أزمة سيئة في حياة السكان الاقتصادية.

وليس بغريب إذا وجدنا الملوك يهتمون شخصياً بإدامة القنوات ممجدين أنفسهم في كتاباتهم كمحافظين لنظام القنوات. وفي مقدمة لأعماله القانونية يذكر حمورابي بأنه: "وفّر المياه الغزيرة لسكان بلاده" وغالباً ما سميت الأعوام بأسماء القنوات. ويأمُرُ حمورابي محافظ لارزا في جنوب بابل: "حالما تنتهي من تطهير النهر الذي بدأت به. طهّر فرات لارزا إلى اور من الأوحال. إلق بالنفايات بعيداً ورتب كل شيء". وقد سمّى نبوخذنصر نفسه أيضاً في كتاباته بـ: "فلاح بابل" و"ساقي الحقول".

لقد كانت الشبكة الإروائية الاصطناعية معقدة جداً، إذ إن القنوات تتفرع من أخرى كبيرة رئيسية وتتفرع إلى فروع أصغر إلى أن تتزود كافة الحقول بالمياه. وكان الفلاحون يقومون بشكل مستمر بمراقبة الأنهر والقنوات، فلا تمر سنة دون أن يتم تعميق الجداول وتنظيفها من الأوحال المتراكمة وكذلك صيانة وتجديد السدود. أما الأوحال فتلقى على جانبي القنوات وتشاهد من بعيد على الأرض المنبسطة كسلسلة عالية ممتدة. وكان الحفر المستمر ضرورياً بسبب المواد الغرينية التي تحملها الأنهر والتي كانت تترسب في القاع.

وفي حالة ارتفاع قاع النهر إلى درجة لا يفيد معها الحفر، كانوا يهملونها ليشقوا قناة أخرى في مكان آخر. وكانت مهمة صيانة القنوات من واجبات السكان الذين يستفيدون منها وكذلك أصحاب الأراضي ومؤجريها الذين تمر المياه من أراضيهم. وتتضمن قوانين حمورابي العديد من المواد المتعلقة بشؤون المياه والإرواء وضمان إدامتها. جاء في المادة ٥٣:

"مَن أهمل صيانة سد حقله، ولم يقم بتقوية سده، وحدثت فجوة أدت إلى تسرب المياه، وسببت أضراراً للمزرعة، ينبغي عليه أن يعوض ما تسبب من خسائر للغلال"

وجاء في المادة ٦٤: "إذا لم يستطع أن يعوض ما سببه من خسائر للغلال فسيباع هو وممتلكاته بالنقد ليعوض بهما ما أصاب صاحب المزرعة من خسائر".
وبالرغم من العناية والمراقبة المستمرتين للسدود والحواجز فإن الفيضانات كانت تجرف أمامها بين حين وآخر كل مصادر الخير، فتبقى تلك الأحداث كذكريات مؤلمة في أذهان الناس. ولقد سردت من هذه الكوارث بمرور الأيام أنواع القصص التي بولغ في تزويقها إلى أن أصبحت أساساً لقصة الطوفان المعروفة.

ولما كان مستوى المياه في أغلب القنوات أوطأ من مستوى الحقول فقد اضطروا إلى رفع المياه بطريقة اصطناعية وذلك بدق عمود في النهر أو القناة تثبت عليه رافعة تحمل في أحد طرفيها دلواً من الجلد أو الفخار وثمة ثقل في الطرف الثاني. يقوم رجل بسحب الماء وصبه في المجرى.

كانت هذه الطريقة من الري تسبب أضراراً كبيراً في مناخ بابل الجاف وذلك لترسب الأملاح بكميات كبيرة. وفي أوقات الحر، حين تتبخر المياه، تبقى الأملاح - التي لا تستطيع الأمطار القليلة إزاحتها - تتراكم بمرور مئات السنين. وحتى في

الأراضي التي كانت لا تروى بصورة اصطناعية كانت الأملاح تترسب وذلك لعدم تمكن الأمطار من اجتياز الطبقة المتكلسة فتتحد مع الكلس. وهنا لعبت الأملاح أحياناً دوراً إيجابياً إذ إن قطعان المواشي والأغنام تقوم بلعقها، كما وأن القبائل الرحل تستفيد منها أيضاً. إلا أن الأملاح كانت تشكل في كل الأحوال خطراً مبيداً لاقتصاد البلد. وكان ينبغي أن تجري المحاولات ليس لتزويد الحقول بالمياه، إنما لإيجاد طريقة جيدة وممكنة - لتصريف المياه بسرعة. وبالرغم من أنهم كانوا يقومون بصرف المياه، إلا أن الأملاح تبقى في الأرض ولذلك كان المحصول يقل بشكل ملحوظ بمرور القرون في الزراعة البابلية. وهكذا عندما كانت نسبة الملح تبلغ النصف بالمائة في الأرض لا يمكن القيام بزراعة الحنطة. فمثلاً في ٢٤٠٠ق.م. كان المحصول في أراضي ديالى الخصبة - أحد فروع دجلة - ١٦٪ من الحصّة العامة، ولكن في ٢١٠٠ ق.م. هبطت إلى ٢٪. وأما إذا ارتفعت نسبة الملح في الأرض إلى ١٪ فلا ينبت الشعير. وفي حالة ارتفاع نسبة الملح في التربة إلى ٢٪ تستحيل زراعة النخيل. وربما كانت هذه الأزمات الزراعية قد شكلت إلى جانب المشاكل السياسية أحد الأسباب الرئيسية في انهيار العديد من المدن السومرية. ورغم ذلك فإن الفلاحين البابليين قد استطاعوا أن يحصلوا على محصول جيد في زمن نبوخذنصر، إذ إنهم كانوا يتركون الأرض ثلاث سنوات ويزرعون في السنة الرابعة. وإلى جانب مشاكل الإرواء الاصطناعية كان على الفلاح أن يكافح ضد الرياح القادمة من الصحراء والتي كانت تغطي الأراضي الزراعية بالرمال. وكانت بعض الأراضي تهدد من قبل الكثبان الرملية المتنقلة.

كان عمل المزارعين شاقاً إذ إنهم إلى جانب المشاكل الكثيرة كان عليهم القيام بصيانة القنوات. كان العمل يبدأ في الحقول في شهر تشرين الثاني حيث تبدأ الأمطار بالهطول ويعتدل الجو. وفي هذا الوقت كان الفلاحون يحرثون الأرض بالمحراث الخشبي من سن طويلة مقوسة بمقبضين أو ثلاثة يسحبها عادة زوج من الثيران. وفي نفس الوقت كان البذار ينثر مع عملية الحرث من خلال قمع مثبت بالمحراث. وبالنسبة إلى الأراضي الطينية الصلبة كانوا يستعملون المعاول القوية. وبعد ذلك كانوا يستعملون المعزق والمسلفة لتسوية الأرض. وكان الفلاحون يروون الزرع حسب الحاجة وسرعة النمو. وفي الربيع، تقريباً في نيسان كان يبدأ موسم الحصاد في بابل. وكان الحصاد يجري بالمنجل. وبعد ذلك يستعملون الحيوانات

لدرس البيادر وكانوا يستعملون أحياناً مدقاً أو مركبة لدرس الحبوب. وبعد عملية الدرس يذرون الحنطة ثم يغربلونها. ولخزن الحبوب يستعملون اسطوانات طينية كبيرة يسحبون الحنطة منها فيما بعد عند الحاجة من ثقب في الأسفل. وكان الفلاحون يحصلون - كما جاء في النصوص - على حوالي ١٥ - ١٦ ضعفاً مما يذروه وأما في المواسم الجيدة فيحصلون على ٤٠ ضعفاً مما بذروه.

وفي جنوبي ما بين النهرين كانت تزرع بالدرجة الأولى محاصيل الشعير والجودر وفي الحالات الجيدة تزرع الحنطة والذرة. وللحصول على الزيت تلعب زراعة السمسم دوراً كبيراً. ولما كانت المخضرات تستعمل بكثرة، فقد طورت منها أنواع مختلفة منها الباقلاء، واللوبياء والخردل، التي تزرع في الحقول. بالإضافة إلى ذلك اهتموا بزراعة الكتان الذي كانت النساء يصنعن الأقمشة من أليافه.

وإلى جانب زراعة الحقول اهتم البابليون بشكل خاص بالبساتين والحدائق وكانت مهنة البستنة محترمة جداً. وثمة روايات عديدة تفيد بأن كثيراً من الملوك في بلاد الرافدين عملوا في البستنة قبل أن يصلوا إلى كراسي العرش منهم مثلاً سرجون الأكدي. احتلت أشجار النخيل أوسع المساحات في البساتين، حيث يستفاد منها لمختلف الأغراض. إن ثمارها لذيذة ومغذية سواء أكانت طرية أم مجففة. وكانوا يصنعون منها أيضاً المشروبات الروحية. وكان الحدادون يستفيدون من نواتها كوقود. وصنعوا من أليافها حبالاً واستعملوا جذوعها في البناء واستفادوا من السعف لأغراض مختلفة ويجري تلقيح النخل اصطناعياً، حيث إن النخيل يتكون من جنسين. صورت عملية تلقيح النخلة في الميثولوجيا وفن النحت. لذا نرى الصور الجدارية العديدة في القصور الملكية وكذلك المنحوتات الصغيرة للآلهة الدنيا في هذه العملية سواء بالنسبة إلى النخيل أو شجرة الحياة.

وبالإضافة إلى النخيل كانت تزرع أيضاً أشجار التين والرمان والعرموط والفستق في البساتين. وأما الأنواع الأخرى من الفواكه فكانت لا تصلح للزراعة الجيدة في مناخ جنوب بلاد الرافدين الحار. لقد كانت تزرع في مناطق آشور المعتدلة وتستورد ثمارها من هناك.

وتزرع تحت الأشجار خضراوات مثل الثوم، البصل، الكراث، الخس، الشبت، الفجل، والخيار إلخ... وهكذا كان البستاني يحصل في الحالات الاعتيادية على محصول جيد. يعتبر البابليون هواة جيدين للأزهار، إذ كانوا يزرعون في حدائقهم

وبساتينهم أزهار الورد والسوسن واللوتس وكان زهر الرمان معروفاً لتزويق الحدائق.

وفي آشور حاول الملك سنحاريب زراعة القطن وقد كان ذلك غير معروف في جنوب بابل. وفي دلتا النهرين دجلة والفرات كان بالإمكان الحصول على كميات هائلة من القصب الذي كان البابليون يستعملونه لأغراض عديدة، بدءاً من بناء البيوت إلى صنع ضفائر للسلال.

شكلت تربية الحيوان إلى جانب الزراعة عاملاً ثانياً في إسناد الاقتصاد البابلي:

وكانت مهنة الرعي تلقى احتراماً كنفس مهنة الفلاحة وكانت ضرورية جداً. وقد سمى العديد من ملوك وادي الرافدين أنفسهم (الراعي المخلص) للشعوب منهم نبوخذنصر. وكانت الأبقار تشكل ثروة خاصة لأصحاب المواشي وهي بالإضافة إلى حليبها كانت تستعمل لجرّ المحراث والعربات ودرس الحبوب. وكان الفلاح المتمكن يمتلك واحداً أو زوجاً من الثيران وأما فقراء الفلاحين فكانوا يؤجرونها لأيام الحراثة والحصاد، ذلك أنهم بالإضافة إلى عدم تمكنهم من شرائها كانوا لا يستطيعون تزويدها بالعلف طيلة أيام السنة. وكانت الأبقار نادراً ما تستعمل للذبح بالنظر لارتفاع أثمانها، اللهم إلا في المناسبات الدينية والأعياد حيث تقدم كقرابين. للغنم والماعز أهمية خاصة بين الحيوانات المنزلية. وكان يمكن للمرء أن يدع قطعان الغنم والماعز تسرح في الأراضي البور وترعى النباتات والأعشاب البرية. وكانت الأغنام تنتمي إلى فصيلة ذوات الليّة وأما الماعز فإلى فصيلة ذوات القوائم العالية والشعر الطويل. وحتى منتصف الألف الثاني كان الجزّ غير معروف، كانوا يحصلون على الصوف والشعر عن طريق النتف. وكان الاهتمام بهذين الحيوانين يجري بالدرجة الأولى بسبب حليبهما. وكانت جلود الحيوانات بعد ذبحها تسلخ كاملة ثم تستعمل فيما بعد كقرب لمختلف السوائل. كان لحم الغنم شهياً ومرغوباً. وكان ثمة خنازير في الكثير من الأرياف، حيث تسرح في الأزقة وتقتات على الفضلات. ولم تكن تلعب دوراً مهماً بالنسبة إلى تغذية الناس، ذلك أنها كانت تعتبر من الحيوانات القذرة. ومن الأشياء التي كانت تنتمي إلى الإنتاج الحيواني، الطيور مثل البط، الوز، الدجاج والحمام، وقد كانت هذه الطيور الداجنة متوفرة في كافة المدن والقرى. ويحتمل أنه قد تمّ استيراد الطاووس في الألف الأول ق.م. من الهند.

كانت تربية النحل غير معروفة عند البابليين في البدء، ويمجّد أحد ولاة المدن في سوخي وماري على الفرات نفسه كونه هو الذي جلب النحل إلى بابل بالذات.

استعمل البابليون الحمار للنقل. إن هذا الحيوان الضعيف ذا العظام القوية واللون الرمادي كان يقوم بتأدية كل أنواع النقل، ولم يكن راعيه يكتفي بتحميله الأثقال بل كان يركبه أيضاً، كما وكان يمكن شدّه إلى عربة لنقل مختلف الأمتعة الثقيلة للتجار والمسافرين. وأما الخيول فقد استعملها البابليون في وقت متأخر. وقد عرفت في الألف الثالث، إلا أنها لم تستعمل للركوب والنقل. ووجدت الخيول لأول مرة في بابل في زمن الكاشيين وكانت تربى على شكل قطعان كبيرة، ودخلت ضمن الهدايا التي كان يرسلها الملوك البابليون إلى فراعنة مصر. ومن أقدم مناطق تربية الخيول هي سلسلة الجبال الشرقية وآسيا الصغرى حيث المراعي الخصبة التي كانت ترعى فيها الخيول. ومن هناك أيضاً استوردت بكميات كبيرة إلى بابل في الألف الأول. لقد كان اقتناء الخيل يتطلب ثمناً باهظاً جداً، ولذلك فإن بسطاء الناس نادراً ما كانوا يستطيعون الحصول عليه. وقد ربيّت الخيول بكثرة في القصور الملكية، حيث كانت تستعمل للصيد وتشد إلى العربات الحربية. وفي الألف الأول استعملت الخيول أيضاً في الجيش وجهّز بها قسم من الوحدات. وقد اهتم البابليون والآشوريون اهتماماً كبيراً بتربية الخيل وتدريبه. وكان مربو الخيول يدونون خبراتهم كإرشادات عامة في أصول تربية الخيول. وقد جاء في أحد النصوص المتعلقة بتربية الخيول والتي تعود إلى الألف الثاني ق.م. (دعه يجري منطلقاً ويدخل النهر، إغسله بالماء، دعه ينتفض ويخرج، دعه يدخل البيت، ادلكه جيداً بالزيت. إنه في البيت يخرّ على ركبتيه، عليك أن تدعه يستلقي على بطنه، قدم له الحبوب، إنه سيأكلها) وعن طريق التزاوج بين الحمار والفرس كان يتم الحصول على حيوان رخيص للحمل وجر العربات هو البغل.

وفي مجرى التطور بدأت علاقات ملكية الأراضي المزروعة تتغير بأشكال مختلفة وكانت أوسع الأراضي تعود للملك الذي عمل دوماً من أجل توسيع أملاكه ومن ثمّ الإكثار من موارده. وبالإضافة إلى الملك كانت أملاك المعابد ودورها كبيرة وكانت تحصل عليها عن طريق الهدايا والوقف الخيري والشراء. وكان الفلاحون الأحرار يملكون أصغر القطع من الأراضي. وبالنظر للديون المتراكمة كان الفلاحون يفقدون بالتدريج أراضيهم فتصبح في أيدي كبار الملاكين. كان معظم ملاكي الأراضي لا يعملون في أراضيهم، بل كانوا يؤجرون القسم الأكبر منها للفلاحين الذين كانوا يضطرون للعمل فيها بجد للحصول على الغلال بسرعة. كان ربح

الإيجار يبلغ في الحالات الاعتيادية ثلث الناتج اما الأرض المعدة للإيجار فيجب أن تكون صالحة للزراعة وكان العقد يجري لمدة ثلاث سنوات. وكان الفلاح في السنة الأولى لا يدفع أية أجرة وفي الثانية يدفع شيئاً قليلاً وأما في الثالثة فكان يدفع الحصة كاملة.

هناك إجراءات قانونية تطبق بحق الفلاحين الذين لا يدفعون الأجرة في الوقت المحدد. وكان حق المالك محفوظاً بالدرجة الأولى، إذ إن المالكين هم الذين يشكلون الفئة الحاكمة في الدولة. وقد جاء في المادة ٤٢ من قوانين حمورابي: (إذا استأجر شخص أرضاً لزراعتها ولم تعط محصولاً بسبب عدم قيامه بالأعمال المطلوبة فإنه يدان وعليه دفع ما يعادل كمية المحصول التي أنتجها جاره في حقله).

وبالنسبة إلى إيجار بساتين النخيل فكان المستأجر يحصل على نسبة قليلة من التمر رغم الأعمال المرهقة التي كان يقوم بها. وقد جاء في المادة ٦٤ من قوانين حمورابي: إذا استأجر أحدهم بستاناً لاستثماره، يجب على المستأجر طيلة فترة الإيجار أن يقدم إلى المالك ثلثي المحصول والثلث الباقي لنفسه. وعندما لا يكون الفلاح في حالة تمكنه من دفع النسبة المقررة بسبب الكوارث الطبيعية فإنه يعفى من الدفع ويمدد الإيجار لعام آخر.

وفي المقاطعات الكبيرة الواسعة العائدة للملك والمعابد يعمل خدم خاصون وعبيد. وعند الأعمال الكبيرة كالحصاد مثلاً كان يتم إيجار أعداد كبيرة من العمال الإضافيين تدفع لهم أجور مقطوعة وعلى الأغلب منتوجات عينية. وهؤلاء العمال يأتون عادة من المناطق الجبلية المحاذية للبلاد، حيث كانت الزراعة غير متوفرة وأسباب الحياة صعبة. وغالباً كانوا يستوطنون عادة في مدينة بابل.

وقد كان الملوك البابليون يوزعون الأراضي عادة على منتسبي الجيش، فتكون فيما بعد إرثاً لأولادهم. وهذه الطريقة من توزيع الأراضي جرت بشكل خاص في عهد حمورابي. وكان ينبغي على الجنود أن يعملوا في الأراضي الموزعة عليهم وكان المحصول بمثابة راتب لهم لقاء خدماتهم في الجيش. وفي النصف الثاني من الألف الثاني كان الملوك الكاشيون يقدمون الأراضي إلى بعض الأشخاص والمعابد والكهنة وهذه الأراضي غير خاضعة للضرائب. وهذه الإجراءات من الهدايا تكون نافذة المفعول بعد أن يتم تحديدها بأحجار الحدود المسماة (كودورو) التي تحتوي على نصوص كتابية. لقد بقيت هذه الطريقة معروفة حتى وقت متأخر. وهكذا أعار الملك البابلي

(مردوخ- أبال- ايدينا) أملاكاً واسعة لأحد معتمديه من ذوي الشأن وقد ثبت ذلك في إحدى الوثائق التي نحتت بشكل رائع وأصبحت مستنداً نافذ المفعول. وقد جاء في النص: (كل من أراد أن يدمر هذا الحجر التذكاري في الأيام المقبلة، سواء أكان ملكاً أم ابن ملك أم موظفاً أم محافظاً. وأراد أن يستولي على هذا الحقل، الذي أهداه الملك البابلي مردوخ- أبال- ايدينا) إلى محافظ مدينة بابل بيل- آخه- ربا، فليصبه آنوويبل وأيا الآلهة الكبار باللعنة التي لا تزول والعمى والصم والشلل وأن يجرجر نفسه بالآلام).

كانت أوضاع الفلاحين ومستأجري الأراضي المادية بشكل عام لا يحسدون عليها، إذ إنهم كانوا يعملون بالدرجة الأولى ما فيه الكفاية لتسديد الضرائب والفوائد في أوقاتها المعينة. وبعد ذلك كان عليهم أن يفكروا في احتياجاتهم الشخصية ومتطلبات عوائلهم. وكان المحصول غالباً لا يسد الحاجة، لذلك يضطرون إلى قرض البذار من الملاكين الكبار والتجار. وقد كانت الفوائد العالية للقروض تأتي على البقية الباقية من المحصول فيبقى الفلاح رازحاً تحت وطأة الديون تدفع به الحاجة إلى أن ينحدر إلى طبقة العبيد. الأراضي الخاضعة للزراعة محدودة جداً، وقد بلغت في بابل عامة ٣٧٥ كم طولاً و٧١ كم عرضاً. وكانت قد قيست ووزعت بشكل دقيق حتى يتم استغلالها بشكل تام وفي عهد حمورابي كان الفلاح الغني يملك ٢٦ موركن(*) والفلاح الصغير ٨-١٢ موركن. وفي العهد البابلي الحديث بدأت الأراضي تنحصر في أطراف المدينة. إذ إن الحقول كانت قد بدأت تتقلص إذ لاتتجاوز الموركن الواحد حيث استعملت لبساتين صغيرة.

وبالنسبة إلى الثروة الحيوانية كانت الحقوق والواجبات مشابهة لما كان عليه بالنسبة للزراعة. وكانت القطعان الكبيرة تعود غالباً إلى البيت الملكي أو المعبد. وكان هؤلاء يؤجرون القطعان للمتعاقدين الذين يوظفون بدورهم الرعاة ومربي الماشية لهذا الغرض. وكان الرعاة يقبضون أجوراً زهيدة جداً. وكان المتعاقد يستطيع أن يستقطع من الأجور فيما إذا أصيبت الحيوانات بضرر ما. وقد جاء في المادة ٢٦٣ من قوانين حمورابي: (إذا شردت بقرة أو شاة من الراعي الذي سلمت إياه فيجب عليه أن يعوض من ماله بقرة ببقرة أو شاة بشاة. وبالإضافة إلى ذلك كان على

* - قياس ألماني قديم. الموركن الواحد = ٢٥٠٠م٢ (المترجم).

الراعي أن يهتم اهتماماً كبيراً بقطيعه ولا يدعه يرعى من زرع الآخرين وإلا كان عليه أن يعوض الخسائر التي يلحقها بالناس وكانت رؤوس المواشي تحمل علامات فارقة حتى يتسنى لأصحابها التعرف عليها بسهولة وفي عهد نبوخذ نصر بدأت تربية المواشي تتركز في أيدي المتعاقدين المحدودين الذين كانوا يسلمونها لمستخدميهم ويستحصلون على الضرائب فقط.

وكان نفس الشيء ينطبق على الثروة السمكية، إذ كانت الأسماك تربى عادة في أحواض خاصة وبكميات كبيرة. وهكذا نرى أن رئيس عبيد الشري انليل- نادين- شوم قد استأجر من هذا ثلاثة أحواض سمك وكان قد توجب عليه أن يقوم بـ: (دفع نصف تالنيت فضة مع تقديم وجبة يومية من السمك لمائدته اعتباراً من يوم الاستئجار). وكان رئيس العبيد يعين المراقبين والسماكين ويأمرهم أن يزودوه خلال عشرين يوماً بـ (خمسمائة سمكة من النوع الجيد). وفيما إذا لم يستطيعوا إنجاز ذلك يتوجب عليهم خلال خمسة أيام إضافة صيد ألف سمكة.

وكان البابليون إلى جانب إنتاجهم الوافر من الزراعة والثروة الحيوانية، يعملون في ميدان التجارة الناجحة وبما أن البلاد لا تملك ثروات أرضية جاهزة، فإن السكان منذ العهود القديمة يدخلون في مبادلات تجارية مع الشعوب والبلدان الأخرى. وهكذا أعطت التجارة العديد من المدن أهمية كبيرة ولاسيما تلك التي لها موقع جغرافي جيد والتي كانت تمر عبرها القوافل التجارية.

لقد تطورت بابل تحت حكم حمورابي لكونها تقع في مفترق الطرق التجارية والتي أدت إلى أن تتحول إلى مدينة ثرية. لقد كان البابليون لا يقتصرون على الاتجار بمنتوجاتهم الخاصة فحسب، بل كانوا يعملون كوسطاء وتجار ناجحين لبلدان أخرى ويحصلون من وراء ذلك على الأموال الطائلة. لقد أصبحت بابل البلاد المثلى للتجار ذلك أنه قد تطور فيها فن الشراء والبيع واقتصاد النقد والمقايضة في وقت مبكر وبشكل جيد.

لقد كان الإقبال جيداً وعالياً على الإنتاج الزراعي البابلي من قبل البلدان المحيطة ببابل التي لها إنتاج زراعي ضعيف لقد كانت هذه البلدان لا تستورد من بابل الحبوب والطحين والبقول فحسب بل التمر وزيت السمسم والأسماك المجففة وكذلك الأقمشة البابلية والخزفيات تدخل ضمن الصفقات المربحة، إذ إنها تمتاز بنوعيتها الجيدة وشكلها الحسن. وكان الحرفيون البابليون يصنعون من مختلف المواد

الخام أدوات فنية جميلة للتصدير. ومن هذه المصنوعات الأختام الأسطوانية من الأحجار شبه الكريمة، والتي كانت تصدر إلى بلدان البحر المتوسط حتى اليونان وبالإضافة إلى الحلي يصدرون دهون التجميل والعطور وغيرها من المواد الكمالية.

ومن المواد الرئيسية التي تستوردها بابل الأخشاب والمعادن والأحجار، إذ إن هذه المواد غير متوفرة في جنوب بلاد الرافدين، كما وأن خشب النخيل لا يصلح للمباني الضخمة. وقد كان الملوك يحتاجون إلى الأخشاب الجيدة والطويلة التي لها قابلية الاستدامة، والتي تستعمل لسقوف غرف القصور والمعابد. وقد كان خشب السدر مرغوباً جداً ويستورد من أمانوس ولبنان إلى بابل. ولقد ذكر نبوخذنصر في نصوصه حول استعمالات خشب السدر: (لقد اخترت أحسن أخشاب سدري، التي جلبتها من غابات لبنان الرائعة، لبناء سقف ايكوا المقدس).

وللحصول على هذه الأخشاب الثمينة كانوا يقومون بإرساليات بل بحملات عسكرية. وكانت أخشاب السدر تجر من لبنان إلى الفرات ومن ثم تصل عائمة إلى بابل. وكانت تستورد للبناء بشكل خاص أنواع أخرى من الأخشاب مثل السرد والبقس.

وكان البابليون يحتاجون أيضاً إلى أحجار البناء ولاسيما لتغطية الأسوار أو البلاط للمباني المتميزة بالآلهة. وكان النحاتون يحتاجون إلى أحجار البازلت والديوريت والمرمر ليتمكنوا من إنجاز تماثيلهم ومنحوتاتهم. وكانت التجارة تجلب إلى البلد أنواعاً مختلفة من الأحجار الكريمة التي كانت تصنع منها الحلي لتماثيل الآلهة وللحياة اليومية. ومن الأحجار الكريمة المرغوبة حجر كريم أزرق كان له فضل السحر ضد الأرواح الشريرة، وكان يستورد من المناطق الشرقية كأفغانستان وإيران. وكانت بابل تصدر بدورها هذا الحجر كمادة خام وكمنتوجات جاهزة إلى بلدان أخرى في مقدمتها مصر. وكانت أرمينيا وكذلك الجزيرة العربية ترسل الكثير من أحجارها الكريمة إلى بلاد الرافدين. وكان يجري صيد اللآلئ التي تسمى (أحجار البحر) من الخليج العربي.

ولصنع أدوات الإنتاج والحلي لا يمكن الاستغناء عن المعادن ولاسيما النحاس. وكانت تستورد بالدرجة الأولى من آسيا الصغرى، ذلك أنه ثمة كميات كبيرة منها في جبال أرمينيا والقفقاس والسواحل الغربية. وللحصول على البرونز فإن الحاجة ماسة إلى القصدير الذي كانت القوافل التجارية تجلبه غالباً من مناطق بحر القزوين

وخراسان. وكانت هذه المناطق الجبلية وكذلك طوروس مورداً هاماً للفضة التي لها أهمية كبيرة لأنها أساس التعامل بالنقد وكذلك الذهب يستورد من المناطق الجبلية. وكان الملوك البابليون يحصلون على الذهب غالباً من الفراعنة المصريين الذين كانوا يجبلونه من مناطق النوبي وفي نهاية الألف الثاني بدأ الإقبال على الحديد، ذلك أنهم راحوا يقدرون هذه النوعية التي لها خاصيّة المتانة والاستدامة وكان الحديد إذ ذاك أغلى من الذهب وأكثر إقبالاً عليه، إذ إن تملك الأسلحة الحديدية كان يلعب دوراً كبيراً في الحروب. وكانت مصادر الحديد الرئيسية هي أيضاً أرمينيا والقفقاس وجنوبي آسيا الصغرى مع طوروس. وكانت التجارة تجلب إلى جانب هذه المواد الخام الكثير من البضائع الضرورية. ولخدمات المعبد وكذلك صناعة العطور تستورد المواد العطرية مثل الآس والبخور من الجزيرة العربية والهند. وكان الزيت المستخرج من السرو والآس والسدر يستورد بكميات كبيرة للأغراض الدينية والنظافة الجسدية. وللأغراض الكمالية كأواني التجميل والأمشاط وإبر الزينة، كان يستعمل العاج الذي يتم الحصول عليه عن طريق التجار السوريين والفينيقيين وكان العاج لا يستورد عادة كمادة خام، إنما كبضائع جاهزة، وكان الإقبال شديداً عليه من قبل القصر الملكي.

وحيثما وجدت التجارة المزدهرة، ينبغي أن توجد طرق المواصلات. ورغم أن الطرق كانت غير مبلطة فإن الخطوط منتشرة حيثما توجّه الإنسان، حيث القوافل تبلغ أهدافها بشكل أسرع وأحسن. وفي مواسم التجارة المنتظمة تكون القوافل محملة بثروات طائلة لذا تنتصب في الطرق الهامة مراكز للحراسة مسافة كل ساعتين. في الصحراء، مواقع محصنة صغيرة تتوفر بالقرب منها ينابيع المياه. ويمكن أن يقضي هناك فترة استراحة سعاة البريد الملكي من حاملي الوثائق الهامة والرسائل أو الهدايا التي كانت ترسل من قصر ملكي إلى آخر.. وكانت هذه الطرق التي تحتل عادة في أوقات الحرب من قبل الجيش، تحتوي على علامات تعين الاتجاهات والمسافات من منطقة إلى أخرى. وهذه العلامات الهادية تفيد التجار في معرفة المسافات التي سيقطعونها سلفاً وفي ما يحتاجونه من الوقت والتجهيزات.

أما بعض طرق التجارة الخارجية الهامة فتنتهي في السواحل السورية - الفلسطينية إذ تتجه بامتداد الفرات ثم تعرج في أواسطه إلى واحة تدمر فسوريا الوسطى أو تمتد أبعد باتجاه الفرات إلى حلب. وبالإمكان السفر من كاركاميش إلى

آسيا الصغرى. وأما الأنهر داخل بلاد الرافدين فتمتد بشكل مواز للأنهر والقنوات الكبيرة أما الطرق المحاذية لدجلة والزاب الكبير فإنها تمتد إلى جبال أرمينيا. وعبر الممرات الجبلية الشرقية كان بالإمكان بلوغ مناطق أواسط آسيا والهند. ويحتمل أن ثمة طريقاً بحرياً يبدأ من الخليج العربي بموازاة السواحل وينتهي في الهند وكان الطريق البحري إلى مصر يمتد حول الجزيرة العربية فالبحر الأحمر.

كانت المسافات التي ينبغي على التجار والمسافرين قطعها هائلة جداً. ومن وسائط النقل التي كانت تستعمل بشكل دائمي، الحمار حيث كان الحمل يوضع مباشرة على ظهره. وللبضائع الثقيلة كانت تستعمل العربات ذات العجلتين أو الأربع عجلات وتجرها الحمير. وكانت هذه الواسطة غير صالحة للطرق الرديئة، إذ إنها كانت تقف في الأوحال ومن الصعب تحريكها. بالإضافة إلى ذلك كانت المجاري المائية تشكل أيضاً مانعاً كبيراً ونادراً ما كانت الخيول تستعمل لهذا الغرض، ذلك أن الحصول عليها كان يكلف كثيراً. وأما الجمل فنظراً لتكاليفه القليلة فقد استعمل كواسطة نقل ولو أن ذلك جاء في وقت متأخر نسبياً، وقد لعب دوراً كبيراً في التجارة منذ أواخر الألف الثاني.

وكان المرء لا يغامر بالسفر وحده وذلك بسبب المخاطر الناجمة عن مجاهل الطرق. وقد كانت غارات اللصوص التي تقوم بها القبائل الرحل في الصحارى تنشر الخوف والفزع الشديدين. وكانت هذه القبائل تجرد التجار من جميع ممتلكاتهم بما فيها من حيوانات وكانوا يجردونهم أحياناً حتى من ملابسهم وحاجياتهم الشخصية، وكان مصيرهم الإبادة عند إبداء أقل حركة مقاومة.. لذلك كانت القوافل تخرج في مجاميع غفيرة حتى تضمن سلامة بضائعها. وكان المسافرون قبل بدء الرحلة يتجمعون في المدن الكبيرة وعند نقاط انطلاق القوافل مشكلين مجموعات كبيرة. لذلك ينبغي عليهم أن ينتظروا أحياناً أسابيع طويلة حتى يتم تجمع عدد كبير من المشتركين. وكان التجار عادة لا يملكون حيوانات النقل، بل كانوا يؤجرونها من أحد رؤساء القوافل الذي كان يقود الرحلة بنفسه ويتحمل مسؤولية نقل وضمان البضائع المسلمة إليه وفي الطرق الطويلة يتفق مسؤولو القوافل فيما بينهم على الرحلة المشتركة حتى لا تبقى القافلة تقطع مجاهل الطرق وحدها. كما كانوا أحياناً يفكون أحمالهم في منتصف الطريق لتحملها مجاميع من القوافل مرسلة من المدن المعنية. وبذلك كان التجار يوفرون عناء البعد عن بلدانهم. لقد كانت حركة المرور مزدهرة بين

مراكز التجارة كتدمر الواقعة في قلب الصحراء، ولذلك كانت التجارة منتعشة أيضاً. وقد كان يشتري رؤساء القوافل البضائع من المناطق التي يمرون منها فيعرضونها للبيع في بلدانهم.

في بابل يجري النقل عبر الأنهر والقنوات. وكان السفر في البر معقداً، إذ كانت الأنهر والقنوات تؤدي إلى التعرجات وتطويل الطريق وبالإمكان عبور الأنهار في المناطق الضحلة. إذ كانت الحيوانات تسبح والرجال يعبرون بواسطة القرب المنفوخة وأما البضائع فكانت تنقل بواسطة العبّارات وعند الأنهر العريضة تستعمل الجسور العائمة. لقد كان العبور ضد التيار صعباً جداً لاسيما وأن للأنهار جرياناً شديداً. كان الفرات اعتباراً من بابل، ودجلة اعتباراً من أوبي صالحين لمواصلات السفن. لقد كان التيار يحول دون أن يلعب الجذف أو الشراع دورهما، ولذلك كانت السفن تجر بالحبال.

وكانت السفن في بابل عادة تفكك وتنقل في البر ويحتمل أن تكون السفن قد صنعت لأول مرة في مناطق الأهوار بين نهري دجلة والفرات وذلك من القصب والقار. وقد استعمل البابليون الخشب في بناء السفن معطين إياها مختلف الأشكال. كانت للسفن دعامات أمامية وخلفية عالية زخرفت برؤوس حيوانات مختلفة. وتتكون من قطع تتداخل مع بعضها وترتفع الصارية في منتصف السفينة. وأما السفن المستعجلة فلم تكن كبيرة وغاطسها صغير. والوزن الصافي لحمولة السفن الكبيرة يتكون من ١ - ١٦ طناً.

ومن وسائط النقل التي كانت معروفة في بلاد الرافدين قارب مدور صغير أشبه بالسلة يسمى القفة. ويصنع من أغصان الصفصاف والقصب المغطى بالجلد ويطلى بالقار وكان التجار القادمون من الشمال ينقلون بضائعهم بالقوارب إلى جنوب بابل. وهناك يبيعون بضائعهم وغالباً أجزاء السفينة أيضاً. وكانوا يبقون على القرب لشد قارب جديد. ولنقل البضائع الثقيلة كان ثمة طوف يدعى (كالاكو) (أي الكلك.م) ويتكون من ألواح مرصوفة فوق مجموعة من القرب المنفوخة.

وكان التجار عادة يؤجرون السفن ويؤجرون لهذا الغرض ملاحاً ماهراً يتحمل مسؤولية سلامة النقل والوصول المضمون. وقد جاء في المادة ٢٣٧ من قوانين حمورابي: (إذا أجرّ أحدهم ملاحاً وسفينة وحملها بالحبوب والصوف والزيت والتمر أو أية حمولة أخرى وغرقت السفينة نتيجة إهمال الملاح وأتلفت حمولتها يجب على الملاح أن يعوّض عن السفينة التي أغرقها وعن كل ما تسبب في إتلافه).

ولما كان التجار لا يرغبون في السفر وحدهم سواء عن طريق البر أم البحر، لذلك يتفق عدة تجار فيما بينهم ويبدأون بالرحلة ويتقاسمون الربح بعد الصفقة الناجحة. ولكي يقتصد التاجر عدة أسابيع أو أشهر من وقته ولكي لا يجشم نفسه عناء السفر فإنه يوظف مساعداً يقوم له بالمهمة معطياً إياه كافة الصلاحيات ولكنه كان يجب أن يقدم له قائمة كاملة بالحسابات ويتلقى هذا المساعد أجوراً يومية.

وبالنظر للدور الكبير الذي كانت تلعبه التجارة فإن الملك كان يطمع في اقتسام الأرباح. وكان معظم التجار والمستوردين الكبار يعملون بأوامره. وكانت التجارة الكبيرة ذات المستويات العالية تحتاج إلى الموافقة الملكية التي كانت تتم بدفع ضرائب. ويتمتع التجار مقابل ذلك بحماية خاصة من الملك الذي كان يضمن بدوره سلامة المرور من خطوط المواصلات. ويحصل المعبد أيضاً على حصته ويطمع في لعب دور الموجه في هذه الصفقات.

وثمة اتفاقيات بين الدول تضمن سلامة التجارة والمارة بأراضيها. وكان ينبغي دفع الضرائب الكمركية إلى الدول التي تمر فيها القوافل. ورغم كل شيء فإن غارات اللصوص كانت تشنّ دوماً على القوافل ويقتل التجار، وكان الملوك البابليون يضطرون إلى التدخل ويشترطون تقديم الحساب القاسي ويكتب أحد الملوك إلى آخر ما يلي: (لقد اعتدي علي في بلدك. أخرجهم (أي اللصوص) إلى الموضع وأرجع المبالغ التي سلبوها. اقتل الناس الذين قتلوا رجالي وانتقم لدمائهم ولكنك إذا لم تقتل أولئك الناس، فستبدأ إما قوافلي أو سعاتك مرة أخرى بالقتل وبذلك تنقطع المواصلات فيما بيننا). لقد كان الملوك يضطرون لإعادة الأمن إلى مجراه الطبيعي بالقيام بحملات تأديبية ضد القبائل الرحل حتى يكفّوا عن غاراتهم اللصوصية. وكان التجار يدفعون غالباً الضرائب إلى القبائل الرحل حتى يتمكنوا من المرور بأراضيهم بأمان وكذلك عن مهمة مرافقتهم لقوافلهم.

ورغم الخسائر والضرائب التي كان يدفعها التجار فقد كانت أرباحهم كبيرة جداً. وكانت صفقة ناجحة واحدة تكفي بأن تؤدي إلى الثراء. كانت التجارة في بابل تتمركز في نقاط معينة مثل المراسي وعلى مقربة من البوابات، حيث كانت البضائع تصل عن طريق البر والنهر. وكانت البضائع تنتقل بين أيدي السماسرة والمشترين العاديين. وتنتظم الأسواق حسب نوعية البضائع يديرها غالباً تجار صغار يبيعون بضائعهم مباشرة إلى الناس.

ولقد تطور أسلوب المبادلة الذي كان معروفاً منذ العهود السومرية إلى أسلوب القيمة المعادلة. وكان قياس السعر في البدء هو الحبوب التي كانت تنتج بشكل رئيسي ثم تحول القياس إلى قطعة معدنية أساسها الفضة. وكان التعامل يجري حسب ثقلها سواء في شكل قطع أو حلقات أو سبائك. وكانت وحدات الوزن الدارجة في البلاد كما يلي:

شي واحد = ٠٤٦٧ غم

شقل واحد = ٨،٤١٦ غم

٦٠ شقلاً = مينة واحدة

مينة واحدة = ٠،٥ كغم

٦٠ مينة = تالينت واحد = ٣٠ ٥ كغم

وفي عهد نبوخذنصر راح الشقل يمثل أصغر الوحدات بدلاً من الشي. ولقياس الحجوم كانوا يستعملون سيلا = ٨٤٢، لتر وفي بعض المدن والمعابد كانت تستعمل وحدات أخرى للقياس. ومن القياسات المعروفة جداً، القياس الذي كان يستعمل في زيار والذي كان يلعب دوراً بارزاً في الاقتصاد.

وكان معظم البضائع والمعادن الأخرى تقدر أثمانها قياساً بالفضة. وبمرور الزمن تغير هذا التقليد، إذ إن الأسعار قد ارتفعت بشكل ملحوظ وهكذا كان يتم الحصول في زمن حمورابي على شقل واحد من الذهب مقابل ستة شقلات فضة. وفي العصر البابلي الحديث ارتفع سعر الذهب بحيث وصل إلى ١٠ - ١٣ شقلاً فضة. وكان الشقل الواحد من الفضة يعادل ١٢ - ١٤٠ شقل نحاس وهذا يرينا السعر الزهيد للنحاس. وفي الألف الثاني كان الحديد لا يزال غالياً. وكان ينبغي دفع ٨ شقلات فضة لشقل واحد من الحديد. وفي القرن السادس قبل الميلاد تغيرت هذه النسبة إلى ١: ١٢٥ وبهذا كان يتم الحصول على ١٢٥ شقلاً من الحديد مقابل شقل واحد من الفضة. وكان سعر الفضة متعلقاً بنقاوتها. وتجنباً للتزوير كانت السبائك والقطع تختم بختم معين ثم تنزل للتداول. وكانت هذه القطع هي الأصول الأولى للنقود المسكوكة. وأسعار البضائع قد وضعت بأوامر ملكية حسب القطع المتداولة. وكان الملوك يهتمون دائماً بإيجاد حياة اقتصادية سليمة ويحولون دون إفساح المجال لرفع أسعار المواد الغذائية وأدوات الإنتاج. إلا أنه في الواقع كان المشتري يدفع عادة أعلى من الأسعار المحددة. وكان الحكام بإجراءاتهم هذه إنما يتوخون الدعاية فحسب

والتظاهر بوجود الرفاه في البلد. ورغم بعض المحاولات فإن الأسعار كانت ترتفع بمرور القرون بشكل أسرع من ارتفاع الأجور. أية أسعار إذن كان يجب أن يدفعها السكان للمواد الغذائية الرئيسية؟ في منتصف الألف الثالث كان يستلم المرء لشقل واحد من الفضة ٣٠٠ سيلا = ١٢١ لتر من الحبوب. وفي عهد حمورابي كان المشتري يحصل لنفس المبلغ ١٥٠ - ١٨٠ سيلا وفي وقت متأخر على ٩٠ سيلا. وفي أوقات العوز كحالات حصار المدينة من قبل العدو كانت ترتفع أسعار الحبوب بشكل خيالي. وفي السوق السوداء كان يتم بشقل واحد على ٢٠ سيلا حبوب. وفي عهد الملك نبوخذنصر استقرت أسعار الحبوب من جديد وكان يتم الحصول على ١٨٠ سيلا من الحبوب مقابل شقل واحد. وفي العهد البابلي الحديث كان يتم الحصول على ١٨٠ سيلا من التمر أو ٣ - ٤ سيلا دهن مقابل شقل واحد من الفضة. ومنذ عهد حمورابي ارتفعت أسعار الدهن ثلاثة أضعاف وقد كان الحصول على بضعة رؤوس من المواشي من قبل الفلاحين أمراً صعباً جداً. وينبغي دفع ٢٠ شقلاً فضة للحصول على بقرة واحدة و٣٠ شقلاً على خمار واحد. وكانت الحمير الجيدة أغلى بكثير بحيث كان السعر يصل إلى ١٢٠ شقلاً أما الشاة فكان شراؤها يكلف من شقل ونصف إلى شقلين. ومنتوجات الحرف اليدوية غالية نسبياً، ذلك لأن الأخشاب والمعادن كانت تستورد من الخارج. هكذا نرى أن سعر المحراث الخشبي كان ٥ شقلات وباب البيت - الذي كان على المستأجر أن يجلبه بنفسه - من ١ - ٢ شقل وكان السكان العاديون يصنعون ملابسهم شخصياً في بيوتهم، ولكن الأقمشة كانت تشترى جاهزة وكان يمكن شراء ملابس جاهزة أيضاً والسعر متعلق بالنوعية ونوعية الخياطة. وهكذا كان يمكن شراء ثوبين وصدرية بست شقلات وغطاء الرأس بثلاثة شقلات. ومن الصعوبة إيجاد تقدير صحيح لحقيقة الأجور، إذ إن معظم الأجور كانت تدفع بالمواد العينية كما وكان تنظيم التعامل مختلفاً.

وكان يتم استئجار العمال لعمل معين - لموسم الحصاد أو لسنة كاملة - وكانوا يستلمون بالإضافة إلى الطعام اليومي ما لا يزيد عن الستة شقلات فضة في السنة وأحياناً أقل من ذلك. أما العوائل التي كانت تؤجر أطفالها القاصرين للعمل فكانت ترضى بأقل الأجور. وكان ثمة متعاقدون يؤجرون أعداداً كبيرة من العمال يقومون بدورهم بتأجيرهم إلى الآخرين فيكسبون من وراء ذلك الأرباح.

كان وضع العاملين بشكل عام سيئاً جداً. رغم التعليمات الملكية في تحديد

الأجور وإتباع سياسة معينة في ذلك، إذ إن تلك التعليمات لم تراع في متطلبات الحياة اليومية. وكانت الثروة قد تمركزت في أيدي فئة صغيرة من أصحاب المال. يتلاعبون بالأجور كيفما شاؤوا. وكانت بعض البيوت المصرفية التي يتوارثها من جيل إلى آخر، أمثال (أكيبي وأولاده) في بابل و(موراششو وألاده) في نفر كانت تلعب دوراً بارزاً في الحياة الاقتصادية كانوا لا يتعاملون بإقراض النقود وبيع وشراء مختلف المنتوجات المحلية والزراعية فحسب، بل يتعاملون بمختلف أضرب السوق السوداء والمضاربات المالية. وحتى إن المتوسط لتزويد المواخير وبيوت الدعارة بالعاهرات يجري عبر دار أكيبي. كما أن الزواج المنتظم بين العوائل الغنية يؤدي إلى تمركز الأموال وبسط السيطرة.

لقد أدى عدم القدرة على الدفع عند أوسع السكان إلى انتعاش كبير لاقتصاد الإقراض الذي يؤدي بدوره إلى استغلال أشد. وكانت النسبة المحدودة للفوائد ٢٠٪ للنقود و٣٣٪ للحبوب ترتفع باستمرار وتؤدي إلى انتعاش الربا.

وعندما يضطر الفلاح إلى الاستقراض في الربيع لغرض شراء الحبوب وإشغال مزرعته فإن ثمن المحصول حسب السعر المتداول آنذاك ويكون تسديد القرض بعد الحصاد مباشرة حيث تكون المحصولات بخسة وقتئذ وعلى الفلاح أن يدفع غلالاً أكثر بكثير من المبالغ التي استدانها، وبذلك يحصل المقرض بالإضافة إلى الفوائد على فروق السعر بالنسبة للمحصول كربح إضافي وضماناً للقرض يعرض المقترض أرضه أو بيته أو أحد أفراد عائلته أو عبيده إن كان ذلك متوفراً.

وكان من الضروري في عهد حمورابي وكذلك في العهد السومري، تسجيل العقود بين المشتري والبائع حتى تكون نافذة المفعول أمام القانون وقد جاء في قوانين حمورابي: (إذ احتفظ أحدهم عنده أو اشترى فضة أو ذهباً أو عبداً أو عبدة أو بقرة أو شاة أو حماراً أو أي شيء آخر من رجل حر أو من عبد أحدهم، بلا شهود أو عقد يكون هذا الشخص قد اعتبر سارقاً فيقتل). يمكن الاكتفاء بشاهد واحد بعد انتهاء عقد الصفقة. وكان يجري تسجيل العقد عادة على لوحة طينية وبهذا لا يبقى مجال للاعتراض، إذ إن كل شيء كان يسجل بالتفصيل. وعند الصفقات الكبيرة تبيع الأموال غير المنقولة والعبيد أو المواشي كانت العقود الكتابية ضرورية جداً وعلى المشتري بالإضافة إلى دفع سعر الشراء تقديم الهدايا إلى البائع والشهود ودفع التكاليف المترتبة على ذلك.

ومن ضمن الذين كانوا يتكالبون على شراء الأراضي عادة الحرفيون الذين كانوا يثرون بسرعة فإلى جانب الزراعة والتجارة لعبت الحرفه اليدوية دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية وكانت الحرفة اليدوية لا تنتج للسوق المحلية وحسب، بل للتصدير أيضاً. وبمرور مئات السنين تطورت هذه المهنة وتوسعت إلى أقسام مختلفة. ومن نفر قليل من الصناع الذين يحتفظون بأسرار المهنة، تطور جيش من العاملين المختصين في حقل الحرفة اليدوية والذين كانوا يشكلون جانباً كبيراً من السكان. وقد أدت نشاطاتهم في حقل الإنتاج إلى تطوير المدن والأرياف وزيادة ثرواتها. وكان الملوك والكهنة والسكان العاديون لا يستطيعون الاستغناء عن خدماتهم. ولذلك يحاول كل حاكم توفير عدد كبير من الحرفيين الأكفاء بقدر الإمكان في بلاده ممن يستطيعون إنجاز جميع الأعمال الضرورية لأبهته وراحته. وهكذا كان الحرفيون يأتون من آسيا إلى بابل. وكانوا يأتون أحياناً باختيارهم للحصول على امتيازات خاصة وحياة جديدة أو يجلبون في الحملات العسكرية وقد اتبع نبوخذ نصر الثاني نفس طريقة أسلافه فجلب من أورشليم بعد احتلالها جميع الحدادين إلى بابل وأسكنهم فيها.

وكان الحرفيون موضع احترام من قبل الجميع، إذ إن أصولهم ترجع إلى الآلهة. وقد جاء في النصوص بأن الاله أيا إله أعماق البحر قد وهب البشر المعرفة للقيام بمختلف المهارات الفنية وقد مجدت كافة الحرف التي لكل منها آلهة خاصة بها في قصة الخليقة البابلية.

وكان مركز الحرفي الجيد في المجتمع أعلى بكثير من مركز الفلاح أو الكاسب أو العامل غير المتعلم. إلا أنه مع ارتفاع عدد الحرفيين الماهرين زالت هذه الفروق. وكان الحرفيون في عهد نبوخذ نصر ينتمون إما إلى طبقة الأثرياء أو المعدوين وذلك حسب ما بحوزتهم من الممتلكات ولم يعودوا يوضعون فوق المراتب الأخرى نتيجة مهاراتهم الفنية ورغم ذلك ثمة في العهد البابلي الحديث حرفيون وفنانون يقدرون بشكل غير اعتيادي ولهم مركز محترم في المجتمع. وفي كل الأحوال لا يمكن أن يكون قد حدث ما جاء في النص الذي يقول: (إن الفنانين يتربعون على قمة الحكم في البلد، وإذا كان الملك لا يحترمهم فإنه سيفقد بلده). وأما الحقيقة فإن الثروة والممتلكات هما اللتان كانتا تتربعان فوق الذكاء والمهارة.

كانت تفاصيل فروع الحرفة قد نظمت بشكل صارم. وفي المدن الكبيرة كبابل تقع الورشات في شوارع أو أطراف معينة. ويمكن مثلاً البحث عن شارع الصاغة أو

شارع الغزل أو شارع النجارة إلخ.. وكان هذا التنظيم عملياً للسكان، إذ إنهم يعثرون بسهولة على ممثلي الحرفة المعينة، ويختارون بذلك أحسن البضائع وأدى وجود إمكانية المقارنة بين البضائع إلى حصول منافسة بين الحرفيين، حيث كان كل واحد يحاول أن ينتج نوعية أحسن من غيره. وبالطبع لم يكن مسموحاً له بغش زبائنه. كان منتمو مختلف الفئات الحرفية قد انتظموا في هيئات حرفية تقوم بتنظيم الأسعار. وكان رئيس الهيئة يمثل زملاءه في العمل في مختلف المجالات، وكان مسؤولاً أمام الموظفين والملك عن دفع الضرائب وله حق التوكيل الكامل للتوقيع على مختلف العقود باسم الهيئة وفي عهد نبوخذ نصر بدأت بوادر انحلال هذه التراكيب، إذ إن المعابد الكبيرة أو التجار الأغنياء والملاكين الكبار راحوا يشغلون أعداداً كبيرة من الحرفيين. ومن المحتمل أن هؤلاء لا ينتمون إلى الهيئات الحرفية بل كانوا خاضعين كعمال أجراء إلى أصحاب العمل. كانت للورشات الكبيرة إنتاجية عالية وبذلك تستطيع ببضائعها أن تزيح الحرفيين الصغار من السوق أو على الأقل خلق المتاعب لهم. وكان هؤلاء يضطرون إلى خلق حوانيتهم والعمل كعمال أجراء في الورشات الكبيرة.

وللحصول على العمل في إحدى الحرف ينبغي على طالب العمل أن يكون قد اختار مرحلة معينة في تلك المهنة. وإذا أرسل أحد الآباء ابنه مثلاً إلى أحد النساجين للتعليم يتوجب على المدرس أن يعلم تلميذه بشكل جيد ويطلعه على أسرار المهنة. وإذا لم يفعل ذلك عليه أن يقدم تعويضاً. وفي عهد نبوخذ نصر كانت معظم العوائل تقدم العبيد الصغار لتعليم مختلف المهن، إذ إن ذلك كان مورداً جيداً للكسب.

إن (رئيس الحرفة) لا يستلم أي مبلغ نقدي مقابل تعليمه. لقد كان آباء التلاميذ أو أصحاب العبيد يجهزونه بالملابس وأحياناً بالمواد الغذائية. وكان الأسطة رب العمل بالطبع يشغل عماله في مختلف المجالات سواء أكان ذلك في البيت أم في البستان أيضاً. ورغم ذلك عليه أن يعلم تلاميذه (الصناعة) حتى لا ينال العقاب. كانت فترة التعليم عند الخياط قصيرة جداً لا تتجاوز السنة وربع السنة. وإذا أراد التلميذ أن يتعلم صناعة القماش يحتاج إلى فترة لا تقل عن السنتين وربع السنة. وفي أعمال النحت يحتاج إلى معرفة أكثر تستغرق مالا يقل عن أربع سنوات. وكان من أصعب الأعمال الحياكة والنسيج ولاسيما صناعة الأقمشة المنقوشة والأغطية والسجاد وكان التلميذ يحتاج إلى خمس سنوات. وغالباً ما كان التلميذ

بعد الانتهاء من فترة التعلم يبقى عند رب العمل فيرتقي إلى رتبة زميل في العمل ويحصل على الأجرة لقاء عمله. وإذا كان الزميل عبداً فإن مالكه هو الذي يستلم الأجر. وعلى العبد أن يدفع شقلاً واحداً عن كل شهر ويحصل من سيده على الأكل والملابس الضرورية. وإذا كان نشيطاً جداً فبإمكانه توفير بعض النقود.

يتعلق تقسيم العمل لمختلف المهن بالدرجة الأولى بالمواد الخام المتوفرة محلياً. ومن الحرف السحيقة في القدم والهامة صناعة الأواني التي بدأت بها البشرية منذ أقدم العصور وكانت لا توجد في البداية أدوات مساعدة حيث تصنع باليد قدور خشنة من الطين. إلا أنه سرعان ما تعلم الإنسان صنع القوالب للصب وفي وقت متأخر من العهد السومري استعملت الطريقة الدوارة. كانت الأواني القديمة لا تحرق بل تجفف في الشمس. وعلموا فيما بعد بأن عملية الحرق تؤدي إلى تقوية الأواني وحفظ الماء من التسرب وبذلك بدؤوا باستعمال أفران بسيطة للحرق. لم يستعمل الناس الأواني للحاجات اليومية الضرورية وحسب، بل راحوا يطورون منها فخاريات ملونة بزخارف محلية. ومع تقدم فن الصناعة كانت ترتفع نسبة الإنتاج وتحولت الفخاريات إلى بضاعة لجماهير الناس خالية من أية قيمة فنية. وعندما ظهر فن التلميع (الصقل) راح يستعمل في الفخار. وفي عهد نبوخذ نصر غطيت معظم الأواني بطبقة ملونة. وكان الخزفي لا يكتفي بصنع الأواني فقط. كما ينبغي أن يكون إنتاجه متنوعاً حتى يتمكن من تحقيق رغبات كافة الزبائن، فكان عليه أن ينصب المواقد والمجامر والمصابيح وكذلك مختلف أنواع الخزفيات والتوابيت والصناديق الخزفية.

وفي المدن الكبيرة ولاسيما في المعابد كان الإقبال شديداً على التماثيل الصغيرة التي كانت تستعمل في بابل لقضايا العبادة وتكريم الآلهة. قام الصناع بصناعة خزفياتهم في البدء باليد المجردة، إلا أن ازدياد الطلب قد أدى إلى استعمال أسلوب الصب الذي كان مربحاً واقتصادياً أكثر. وهكذا كان الحرفي يقوم بصنع قالب طيني يصب فيه عدداً كبيراً من التماثيل التي كان يحرقها فيما بعد فيعرضها للبيع. وكان الاقبال في عهد نبوخذ نصر شديداً على النماذج التي تمثل امرأة تحمل طفلاً - وهي تجسيد لآلهة الخصب - وكذلك موسيقيين بمختلف الأدوات الموسيقية ولمراكب الآلهة في أعياد رأس السنة كانت تعمل نماذج من الطين للأشياء المستعملة في ذلك الحين، ولاسيما السفن والمناضد والأسرة والأجراس. وكانت التماثيل الطينية

تعد للجماهير الواسعة فإن أسعارها مناسبة، إلا أن ذلك كان على حساب النوعية. وكانت على الأغلب بدائية ومكررة. إلا أن عدداً غير كبير من المنحوتات كالنت تضع نفسها فوق هذا المستوى الواطئ وتثبت بذلك بأن الفنانين الموهوبين كانوا يستطيعون استعمال الطين بمهارة كمادة للعمل. وكانت الأفران المستعملة لحرق الفخار تتكون من أقبية كبيرة بأقواس في الغالب جرى صنع الطابوق من قبل الفخارين أنفسهم أو من قبل مساعديهم. وإذا كان الأمر يتطلب صنع نماذج للمباني الفخمة كالصور الجدارية للملك أو الطابوق الصقيل، فكان ينبغي أن يكون العمل في غاية الدقة. ومن تلك الأعمال ما يمكن مشاهدته في شارع الموكب، والطابوق المستعمل في باب عشتار ببابل والذي صقل بمختلف الألوان. ولصور الحيوانات الجميلة والبارعة كانوا يصنعون نماذج كاملة من الطين بحيث إنها شكلت الأساس للأشكال الطينية وبذلك كانوا يستطيعون طبع طابوق الصور الجدارية بمختلف الحيوانات. وكان هذا الطابوق يحرق ويصبغ بالطلاء الزجاجي المصهور. ويحصل أصحاب العمل على مختلف الألوان وذلك بمزيج من أوكسيد المعادن ويحتمل أنهم استعملوا خيوطاً زجاجية سوداء لعزل الألوان عن بعضها تمنع امتزاج الألوان مع بعضها. وبعد عملية حرق خفيفة كانت الخيوط تذوب فتتحد مع الطلاء.

كان ترتيب هذه التفاصيل وكذلك صهر الدهان فناً خاصاً يقتصر على عدد قليل من الحرفيين. وقد بقي هذا الفن الخاص مقتصراً على بابل.

كانت الحرف السحيقة في القدم والضرورية تعتمد بالدرجة الأولى على المنتوجات الحيوانية. وكان غزل الصوف من واجب النساء في البيوت. أما المعابد التي كانت تملك قطعان المواشي فلها مجموعة كبيرة من الرقيق أو العاملات بالأجرة للقيام بالعمل.

وأما عملية النسج فكانت من عمل الرجال. وكانت الأقمشة البابلية المعروفة حتى في الخارج تصنع بواسطة نول أفقي بسيط. ويصنع الخياطون الملابس قبل كل شيء للقصر الملكي والكهنة والوجهاء. وأما الفقراء فكانوا يخيطون ملابسهم في بيوتهم بأنفسهم. وكانت الملابس التي تخرج من عند الخياط ثمينة ومطرزة بشكل فني عال ومزخرفة بالمعادن الثمينة واللآلئ. وكانت في المعابد ثمة حركة خياطة واسعة، ذلك أن تماثيل الآلهة كانت تحتاج إلى ملابس جديدة في الأعياد والمناسبات. ولأن ألوان صوف الماعز والشياه اقتصرت على الأبيض والأسود والبني لذا توجب

صبغها بألوان مستخرجة من النباتات أو المعادن وللملابس الثمينة صبغت خيوط من الذهب تعطي للملابس شكلاً جذاباً.

وبالإضافة إلى الأقمشة كان يتم صنع السجاد الذي يفرش به القصر والمعبد فقط. أما البيوت الاعتيادية لعامة السكان فكانت تفرش أرضية الغرف بالحصران. كان السجاد غالياً جداً وكان يزخرف عادة بالأشكال الهندسية وصور النباتات.

كان العمل في تهيئة الجلود ودبغها من اختصاص حرفيين اختصاصيين ولاسيما صناع الأحذية، الذين كانوا يصنعون بضائع أخرى. مثل الصنادل والجزم وأكياس جلدية وحقائب. وكان الطلب كثيراً على السياط وأنواع السيور التي كانت تستعمل للخيول والحمير والثيران. لم يكن المشترون من الريف حسب، بل من القوافل العابرة والجيش أيضاً. وكان ينبغي على العاملين في حقل الجلود أن يصنعوا للجنود الدروع وجبائر الوقاية للأرجل والخوذ والتروس والجعبات. كان الملك يتعاقد مع الحرفيين العاملين بصناعة الجلود على أن يزودوا الجيش بأعلى نسبة مما ينتجونه.

لعب الحرفيون العاملون في حقل المعادن دوراً هاماً في عصور ما قبل التاريخ. والحقيقة أن الناس كانوا يعانون في البداية صعوبات كبيرة في الحصول على المعادن وإعدادها للعمل، إذ إن الأدوات المستعملة في ذلك الحين كانت بدائية جداً. إلا أن التقدم في المهارة البشرية قد جلب معه تكنيكاً جديداً للعمل. وقد تم لأول مرة استعمال النحاس وقد استطاع الحدادون من خلال أسلوب جديد للصهر خلط المعادن، كما وتمكنوا قبل كل شيء الحصول على البرونز القوي وذلك بإضافة حجر الكحل أو الرصاص وأخيراً القصدير. استعمل الحدادون فحم الخشب أو نواة التمر كوقود لنيران أفرانهم. واستعملوا المنفاخ الاعتيادي للحصول على نار حامية أو على الأقل الحرارة العالية لفترة قصيرة. وكان الصب في قوالب الحجر والطين معروفاً بالإضافة إلى أسلوب الطرق في الحصول على الشكل المراد تحمية المعدن. وللإنتاج الضخم كانوا يستعملون الصب المجوف وذلك لتوفير المعدن ولكي لا تكون النماذج ثقيلة الوزن. وبالنسبة إلى التماثيل البرونزية الضخمة كانت التجاويف تملأ بالرمل المزيت أو القير.

وضمن حرف الحدادة بدأت أيضاً الاختصاصات. إذ إن هذا العمل الذي راح يغزو كل شيء بدأ يتطور باستمرار. وهناك من اختصّ بالصهر وحدادة المواد الكبيرة والصياغة. إلخ.. واستعمل الصاغة النحاس والبرونز والذهب كمواد خام. وكانت الأسلحة الذهبية تصنع عادة للعرض في المعابد وكهدايا للآلهة.

الأواني تعتبر من الأشياء الثمينة جداً، بحيث كانت تجلب كغنائم نفيسة في الحروب من مصر وفينيقية أو كانت تقدم كجزية إلى الملك من الشعوب الخاضعة لحكمه. وكانت الأواني الحجرية الصغيرة الأسطوانية تستعمل لحفظ العطور والزيوت الكريمة.

كان حق عمل تمثال أو منحوت منوطاً بالملك والفئات الاجتماعية الراقية. وكان النحاتون يعملون تقريباً فقط للقصر والمعابد.

ولا توجد في بابل تماثيل حجرية ضخمة كما كان عليه الأمر في آشور حيث الأحجار المتوفرة. وحين أراد نبوخذنصر أن يخلد نفسه اكتفى بفن الطابوق الملون المصقول الذي تركه على جدران أبنيته، وبتمثال واحد حفر على الصخور المطلة على نهر الكلب على البحر الأبيض، حيث يمجد قهره للممرات الجبلية الصعبة. وكذلك أجداد نبوخذنصر - بخلاف الملوك الآشوريين - لم تعرف عنهم أية تماثيل باستثناء حمورابي الذي نشاهد صورته على سلته المعروفة.

ومن الطبيعي أن يكون للعاملين في صنع الأختام الأسطوانية سوق رائجة. لأن الأختام ضرورية لكل بابلي حر، إذ إنه بعد الانتهاء من عقد صفقة تجارية أو كتابة وثيقة كان عليه تصديقها بالختم. ولفن صنع الأختام الأسطوانية تاريخ طويل من التطور يرجع إلى فجر العصر السومري. وكانت الأختام آنذاك كبيرة وتحمل صوراً كثيرة وخاصة المشاهد الأسطورية، وفي العهد البابلي القديم كان تكرار المجاميع الصورية أقل وأكثر تواضعاً. ومن المشاهد التي بقيت مرغوبة حتى عهد نبوخذنصر مراسم العبادة. وفي العهد البابلي الحديث راحت أشكال الآلهة تقدم من خلال رموزها كما وجرى التركيز في المشاهد.

إن أعمالاً مثل صناعة الأختام والنحت والحدادة والنجارة كانت تتطلب المهارة والبراعة. أما الخبازة والقصابة والطبخ فكان يمكن تعلمها بسرعة وكانت لا تلعب بالنسبة إلى السكان دوراً كبيراً، ذلك لأن معظم النساء كن يستطعن تميّز الصاغة ببراعة فائقة ولهم خبرات ممتازة في فنون مختلفة مثل الخرم والنقش والتطعيم. وكانت الأعمال الكبيرة لا تصنع من الذهب الخالص بل تطلى به.

ولما بدأ الناس باستعمال الحديد بشكل كبير في حوالي نهاية الألف الثاني فقد بدأوا يستوردون غالباً المواد الجاهزة والمصنوعة من الحديد من مناطق آسيا الصغرى. وفي وقت متأخر بدأ الحدادون المحليون يستخدمون المواد الخام في صناعة الأسلحة

وأدوات الإنتاج. ويحتمل أنهم قد تعلموا هذه الحرفة من الحرفيين النازحين من المناطق الشمالية.

ولقلة الخشب فإنه نادراً ما كان يستعمل للأثاث ما عدا القصر الملكي والمعابد وبيوت الأثرياء. وكانت صناعة العربات ومستلزماتها من اختصاص نجارين لهم خبرات واسعة في هذا المجال. إن العجلات التي كانت تصنع في البدء من قطعة كاملة من الخشب، بدأوا يصنعونها من ثمانية أضلاع من الخشب. وكانت المتانة أو الحجم يتعلقان بالغرض الذي تستعمل من أجله العربة، فعربات النقل كانت كبيرة وقوية وأما العربات الحربية فكانت صغيرة جداً وخفيفة. اهتم النجارون بالدرجة الأولى بصناعة السفن الصغيرة للتجارة والنقل. ولصناعة السفن الحربية أو الضخمة كان يستدعى بناؤو السفن المتمرسون من ذوي الكفاءة العالية والذين كانوا قد توارثوا خبرة مئات السنين في صناعة السفن عابرة البحار.

كانت الأحجار تستورد من الخارج. ولذلك كانت هذه المادة غالية جداً. وكان السكان يملكون الأدوات الضرورية المصنوعة من الحجر مثل الطاحونة اليدوية والبرى ومدقة الهاون التي كانت تتكون من حجر البازلت القوي - وكانت النوعيات الجيدة من الحجر يملكها عادة القصر الملكي والمعابد حيث كانت تصنع منها مزهريات وأوانٍ لماعة وصقيلة وبأشكال جميلة ويتم إنجاز هذه الأعمال في بيوتهن.

وفي القصر الملكي، البيوت الثرية والمعابد فكان هناك عمال مختصون بتلك الأعمال. أما البيرة والمشروبات الكحولية فتصنع عادة في المعابد. وكان العامل في حرفة عصر النبيذ يستخرج العطور أيضاً. وكانت هذه تلعب دوراً كبيراً في مراسم العبادة.

وهكذا كان الحرفي البابلي المختص لا يزود السكان بكافة المنتوجات الضرورية اليومية فحسب، بل بالكثير من البضائع الكمالية أيضاً.

إن الوضع الجغرافي الجيد لبابل التي كانت تقع على مفترق الطرق التجارية، وخصوبة الأراضي، ووفرة المياه والنشاط الذي امتاز به سكانها، كل ذلك شكل أساساً جيداً لاقتصادها القوي ومستوى معيشتها العالية.

الملك ومساندو حكمه

"نبوخذنصر، ملك بابل، الخاشع، الطائع، الذي يمجد الآلهة العظام، وأمير الكهنة السامي، ومعين المعبد ايزانجيلا وازيدا، ابن نبوبلازار ملك بابل، هو أنا"

هكذا كان لقب الملك البابلي الذي يرينا شرطين أساسيين لحكمه: علاقته الجيدة بالآلهة وأصله الرسمي. ومن خلال ذكر اسم أبيه وأسلافه يعطي الشهادة التي تثبت كونه من السلالة الحاكمة والعائلة الملكية. وكان الحكام بالإضافة إلى ذلك يحاولون جهد إمكانهم إرجاع فروع شجرة النسب إلى أقدم العصور، وحتى إنهم كانوا يعتبرون بعض الأبطال الأسطوريين من ضمن أجدادهم، وإذا شاء أن احتل أحد المغتصبين الحكم وأسقط السلالة الحاكمة فكان يحاول في هذه الحالة إما أن يضع ستاراً على هذه السلالة أو ينصب نفسه كمنفي من قبل الآلهة كما فعل نبوبولازار حيث سجل ما يلي:

"أنا بتفاهتي، وكابن للاشيء، كنت دائم التأمل في قدسية بنو ومردوخ، سادتي... وعندما اختارني مردوخ حاكماً على البلاد والسكان لبّيت النداء..."

ولتبرير هذه المساندة من قبل الآلهة والكهنة كان ينبغي على الحاكم أن يتظاهر بالشكر، حيث كان يبني المعابد الجديدة ويقدم الهدايا والامتيازات إلى الكهنة.

لم يكن المساندون الحقيقيون لحكم المالك في الواقع هم كهنة المعبد بل الجيش القوي الضارب ومجموعة مختارة من مساعديه وموظفيه. ومن خلال هؤلاء كان يستطيع قبل كل شيء ضبط زمام الحكم في يديه، وكان الحكام يحاولون دوماً توسيع

حدود ممالكهم واحتلال بلدان جديدة بواسطة الجيش، وفي أوقات الضعف كانوا سعداء إذا استطاعوا الاحتفاظ بحدود مملكتهم - وكان الملك هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ونادراً ما كان يأتمن إعطاء هذا المركز الحساس إلى شخص آخر، كما هو الحال مع نبوبولازار الذي قلد ولده نبوخذنصر هذا المنصب وبسبب الأهمية الكبيرة للجيش، كان الحكام البابليون يهتمون لإعداد الجيش الكبير، ليكون على استعداد دائم لكل الطوارئ.

وفي عهد حمورابي ومن خلفوه كانت الفئات السفلى في المدينة والريف تساق إلى الجيش. وكل من يرسل بالنيابة عنه شخصاً آخر إلى الجيش يعاقب بالموت. وكانت تعد قوائم خاصة للقادرين على حمل السلاح. وهناك استثناءات لمواطني مدن معينة أو منتسبي بعض المهن، إلا أن التجنيد كان مبدئياً إلزامياً لكل فرد وشكل المتهنون للجندية نواة الجيش العامل. وفي حالات الحرب يستدعى القادرون على حمل السلاح إلى القتال، إذ إنهم كانوا يشكلون القوة الاحتياطية للجيش، وفي عهد نبوخذنصر بدأ هذا الالزام يتلاشى، إذ لم يكن في الإمكان جلب كل مواطن إلى الجيش. وكان يتوجب على من لا يرغب أداء الخدمة في الجيش دفع بدل نقدي معين، ولذلك فإن جيش نبوخذنصر يتكون من المرتزقة الذين جاؤوا من مختلف أنحاء العالم آنذاك ولاسيما من الجبال المحاذية.

أما أجور الجنود فتتكون بالدرجة الأولى من المواد العينية التي تسد حاجاتهم، وينبغي على المدن تزويد الجيش بمواد معينة، ويحتمل أنها بالإضافة إلى ذلك كان يجب عليها دفع كميات معينة من النقود التي كان يستفاد منها في دفع الأجور. وكان حمورابي يملك جنوده قطعاً من الأراضي التي يستفيدون منها في إعالة عوائلهم. وهذه الأراضي لا تخضع للبيع والوراثة بل للاستغلال المباشر فقط.

وللأولاد حق الحصول على هذه الأراضي فيما إذا أبدوا استعدادهم للعمل في الجيش، وكان ملتزمو الأراضي يطمحون بالطبع في إدخال الأراضي ضمن ملكيتهم الخاصة وكان طموحهم يتحقق أحياناً وبمرور الزمن. ولقد حاول نبوخذنصر ربط الجنود به وذلك بإعارتهم الأراضي، إلا أنه لم يفلح كثيراً في ذلك.

كانت الفرق الرئيسة في الجيش البابلي تتكون من وحدات المشاة وفي الألف الثاني قبل الميلاد استعمل الجنود في تلك الفرق. ثم تطور استعمال العربات فسلاح الفرسان، إن فرق المشاة التي كانت مزودة بمختلف الأسلحة تضم أكبر عدد من الجنود.

ومن الأسلحة المهمة المستعملة القوس والنشاب وقد كان الرماة بالإضافة إلى ذلك يحملون سيفاً قصيراً ورمحاً وحيث إنهم لا يستطيعون الاحتماء بالقوس، لذلك كان ثمة مرافقون يحملون التروس للحماية وعند قيام الجيش بعمليات الحصار كانت تستعمل تروس كبيرة بطول قامة الإنسان يقف وراءها رجلان. وكان حملة التروس أيضاً مسلحين بالرماح والسيوف التي تستعمل في حالة الاشتباك المباشر. وكانت الرؤوس المصنوعة من المعدن معرقلة لتحركهم بسبب ثقلها ولذلك يفضل استعمال الرؤوس المصنوعة من الجلد ومغطاة بالمعدن. وكانت فصائل خاصة من الرماة بالمقاليع تقدم بقذف الحصون المحاصرة بالأحجار والنيران. ومن الأدوات المستعملة أيضاً فؤوس القتال والأحجار والهراوات المعدنية وكذلك الفؤوس المزدوجة. وكان الجنود يلبسون عادة صدريات جلدية أو معدنية ويشدون جلوداً لوقاية الأرجل ويعتمرون خوذاً من البرونز أو الجلد. وكان الرماة يرتدون أيضاً عند هجمات الأعداء دروعاً معدنية إلا أنها كانت تثقل حركتهم. وكان الرماة يعملون أيضاً في مجال المحاربين بالعربات التي تشكل إحدى الفصائل الهامة في الجيش. وكانت العربة الخفيفة ذات العجلتين والتي يجرها حصانان أو ثلاثة، تحمل عدة أشخاص هم قائد العربة وأحد الرماة وحامل القوس وكان الأخير يستطيع أن يحارب بالرمح. وكانت الخيول تغطى بمختلف أنواع السروج المزخرفة والدروع المصنوعة من المعدن أو الصوف. إن وحدات العربات محدودة في الجيش إذ إن إعدادها كان يحتاج إلى تكاليف عالية جداً وبذل معظم الملوك اهتماماً كبيراً في أن يكون لهم صنوف ضاربة قوية وبأعداد كبيرة. ويستعمل سلاح الفرسان في مطاردة الأعداء خاصة أنهم لم يكونوا يستعملون السروج بل يجلسون بأرجل منحنية على غطاء للسرج مربوط بحزام ولم يكن الركاب معروفاً لديهم. وكان سلاحهم الفعال هو القوس وغالباً الرمح.

وفي الحملات الحربية كان على الجيش المرور بأراضٍ قاحلة لا توجد فيها الطرق ولهذا كانت هنالك قوات خاصة من الطلائع لمساعدة الجيش في تمهيد الطرق وإقامة الجسور الخشبية وعمل الآلات الضرورية لها وهذه تتكون من اسكالات عالية قابلة للحركة مربوطة برؤوس معدنية تقوم بتسهيل عملية هجوم الجنود عبر الأسوار. وكانت فرق الكشافة تبني أيضاً المعسكرات التي يرابط فيها الجيش لفترات طويلة، وهذه محصنة وذات قلاع تطوق المدينة المحاصرة من جميع الجهات، وفي الداخل تنصب خيام الفرق وثمة خيمة كبيرة مجهزة بكافة وسائل الراحة معدة للملك أو القائد الأعلى، وثمة خيام خاصة للمطابخ والذخائر والحيوانات والأسلحة.

وفي الحقيقة أن الملوك البابليين قادوا حملات عديدة واحتلوا الكثير من المناطق إلا أنهم لم يسجلوا عن ذلك تقريباً أي شيء بخلاف الملوك الآشوريين. ولذلك فإن المعلومات تنقصنا حول حجم جيوشهم أو أعداد الأسرى. في حين تخبرنا التقارير الواردة عن الملوك الآشوريين والتي نذكرها في سبيل المقارنة أن وحدات فرقة إحدى المقاطعات كانت تضم ٣٠ رأس و ٣٠ من حملة التروس والرماح وهذا يعني أن مجموعة الجيش بالتأكيد تضم أضعاف ذلك. إلى جانب ذلك هنالك أعداد هائلة من العاملين أيضاً كخدم العربات والطباخين ومختلف أنواع المساعدين وغيرهم، ولا ندري فيما إذا كانت هذه المعلومات صحيحة أم مبالغاً فيها. وفي كل الأحوال لا يمكننا البت في ذلك. وكانت ثمة وحدة حراسة تحت قيادة أحد الرؤساء تقوم بحماية الملك، وكان جنود هذه الوحدة لا يقومون بحراسة الملك في أوقات الحرب فحسب، بل بحراسة القصر والعائلة الملكية والحاشية في كل الأوقات وكانت القصور الملكية تحتوي على أماكن خاصة لسكن هذه الصفوة من الجنود.

احتوى القصر الكبير لنبوخذنصر الذي كان ينتصب ضمن أسوار المدينة، على مجاميع كثيرة من الغرف وهذا يعطينا صورة واضحة عن مدى الأبهة التي تمتع بها الملوك البابليون. كما ويمكننا أن نسمح لأنفسنا بالتصور بأن قسماً من هذه الغرف كانت مقرات عمل لأعداد هائلة من الموظفين. ويحتمل أن بعض الغرف الواقعة في القسم الجنوبي كانت ورشات لأعمال الحجر حيث كانت تصنع من أحجار الباستار الناعمة زجاجات رقيقة وطويلة كانت تستعمل بكثرة في القصر، وكان بلوغ الفناء الثاني - الأوسط - يتم باجتياز بوابة ضخمة. أما الغرف الواقعة على جانبيها فتعود - كما يعتقد - إلى الإدارة أيضاً. وهناك تتجمع التقارير الواردة من جميع أنحاء الدولة حيث تتم مراقبة الأحوال وتفتيش الضرائب، إن الغرفة الكبيرة التي تقع جنوبي الفناء الأوسط تعود إلى بيت كبير الموظفين الذي يسكن هناك. وكان المستشارون يتوزعون في الغرف الصغيرة الكثيرة. وفي الفناء الرئيسي تقع الغرف الضخمة الخاصة بالملك. وفي الجنوب تقع قاعة العرش التي طولها ٥٢ متراً وعرضها ١٧ متراً وتطل على الفناء بثلاثة أبواب. وقبالة الباب الأوسط تقع مشكاة بسلالم يمكننا تصور وجود عرش نبوخذنصر الذي يجلس عليه في المناسبات الرسمية كاستقبال الوفود ودافعي الجزية والاحتفالات الدينية. أما القاعة فتترك عند المشاهد انطباعاً مهيباً وذلك بصورها الجدارية الملونة الضخمة. وكان نبوخذنصر قد أعطى

لمظهر قلعته اهتماماً خاصاً، ويقول حول ذلك في أحد نصوصه: "في بابل، مدينتي العزيزة، التي أحبها، بنيت القصر، الدار التي تدهش الناس، رباط وحدة البلاد، البناء اللماع ومحل جلوس جلالتي الملكية... لقد استعملت خشب السدر القوي لسقوفه وصنعت أجنحة أبوابه من السدر المغطى بالنحاس وصنعت مفاصلها من البرونز. لقد صرفت في سبيل ذلك الفضة والذهب والأحجار الكريمة. وكل ما هو غالٍ ونفيس من الممتلكات والأحوال" إن هذا النص يرينا مدى الأبهة التي كان يتمتع بها القصر. وفي الغرف الواقعة وراء قاعة العرش آبار كبيرة ربما كانت تزود الملك وعائلته بالمياه العذبة، وكان في السور باب يمكن اجتيازه إلى القصر دون المرور بالفنائين المذكورين والبوابة الرئيسية.

وكان القسم الغربي المحاذي للقصر غير مبني بشكل مباشر، إذ إن مستواه أوطأ بقليل، ولذلك فإن أرضيته قد عليت عدة مرات وبني له بضعة سلالم. وكان هذا القسم قد بني في عهد نبوبولازار وقام ابنه بتعميره وتجديده.

ويمكننا الاعتقاد بأن مسكن الملك الشخصي يقع في هذا القسم الخاص من القصر الضخم. وكان ثمة أربعة دور من نفس الشكل في القسم الجنوبي من القصر تعود إلى زوجات الملك. كل واحدة منهن تسكن في أحد الأقسام مع جارياتها وعبيدها. إلا أن تحديد غرف السكن الخاصة بالملك صعب، إذ إن كثيراً من الشقت على جانبي فناء هذا الملحق. إن الشيء النموذجي لكافة مرافق القصر هو أن الفناء يشكل مركزاً لكل مجموعة سكنية، وتحيط بكل فناء مجموعة من البيوت، وكل قسم مستقل بذاته وله فناء صيف خاص به. وكانت الغرف الرئيسة تطل عادة على الجهة الشمالية منعاً لتسرب أشعة الشمس. ومن مرافق القصر الفريدة "حدائق بابل المعلقة" المعروفة، التي كانت تقع في القسم الشمالي الشرقي وتطل مباشرة على السور وبالقرب من باب عشتار، وتتألف من ١٤ غرفة مستطيلة متشابهة تشابهاً تاماً تمتد على جانبي ممر في الوسط، تعتبر من أعظم المباني التي بنيت بالطابوق والحجر وبأسلوب الأقواس وفي إحدى هذه الغرف بئر بفتحة مربعة الشكل تمتد على جوانبه آثار طويلة أخرى، ويحتمل أن آلة خاصة لسحب المياه كانت قد نصبت على هذه البئر لدفع المياه إلى السطوح العليا. وكانت السراديب الواقعة تحت الحدائق المعلقة تستعمل كمخازن باردة.

كان نبوخذنصر لا يملك هذا القصر فحسب، بل إنه أمر ببناء قصرٍ آخر خارج

أسوار المدينة، يقول عنه أحد النصوص - الذي بالغ في وصفه بالتأكيد - بأنه قد أنجز بناءه خلال ١٥ يوماً فقط وإحدى جهات هذا القصر تحاذي شارع الموكب. وكان بناء الأسس الهائلة لذلك ضرورياً جداً، حيث تقع قناة اراختو التي استلزم ردمها، وكان على العمال أن يغطوا المكان بقطع الطابوق بعلو متر، وقد غير نبوخذنصر خططه خلال العمل عدة مرات، وكان على البنائين أن يعيدوا البناء من جديد كي يتمكنوا من تحقيق رغباته. وقد أراد نبوخذنصر أن يتجاوز ببنائه هذا كل ما سبق من أبهة وعظمة. وقد بلطت الأرضيات بمختلف الأحجار الملونة وزوقت الجدران بالصور الملونة، وأقيمت عند البوابات تماثيل ضخمة، شبيهة بما كان عليه في آشور ويعتقد أن الملك قد هيّأ هذا القصر لمسكنه الشخصي مع إبقاء القلعة الجنوبية لكبار رجال البلد والإدارة.

وفي القلعة الرئيسية عرضت مجاميع هامة من الأعمال الفنية التي تعود إلى الماضي والتي جمعها نبوخذنصر وأسلافه من مختلف المناطق البعيدة ويمكن اعتبار ذلك من أولى المتاحف في العالم. ولم تكن تلك المجاميع قد جمعت لأهميتها الفنية بل على الأكثر اعتزازاً بأهميتها كتذكار لاحتلال مناطق مختلفة من المشرق وإظهار قوة بابل من خلال تلك الشواهد، ومن أقدم التماثيل التي وجدت هناك ما كان تاريخها يعود إلى ألفي عام قبل نبوخذنصر أو بالأحرى إلى الأمير السومري سولكي، وثمة تمثالان يصوران أميرين من مدينة ماري التي دمرها حمورابي، بالإضافة إلى مجموعات كبيرة من التماثيل والنصوص الآشورية التي تمثل مختلف العهود. كان الملوك البابليون مثل نبوخذنصر ونبونيد يهتمون كما جاء في النصوص - بفن البناء - وكانوا عند بناء معابد جديدة يبحثون عن أحجار الأساس التي وضعها البناة القدماة من الملوك. وكانوا يفعلون ذلك بالدرجة الأولى لأغراض دينية، إذ إنهم يريدون بذلك احترام تعليمات الآلهة التي كتبت هناك. وكانت النصوص التي يعثر عليها تترك في مواضعها.

ويقول نبونيد أحد أحفاد نبوخذنصر: "أحد أحجار الأساس... لم يتم العثور عليه منذ عهد سرجون، ملك بابل وابنه نارامسن أحد أسلافي الملوك وحتى عهد نبونيد ملك بابل، وبحث كوريكالزو ملك بابل الذي جاء قبلي أيضاً، ولكنه لم يعثر على حجر الأساس... اسرحدون ملك آشور، كلّف قوات كافة الدول للبحث فلم يعثر على حجر الأساس. نبوخذنصر، سلفي الملكي، استدعى عماله بأعداد هائلة... بحث

وجهد وحفر في الأعماق ولم يعثر على التدوين. أنا عكس ذلك، نابونيد ملك بابل معين معبد ايزانجيلا وازيدا، خلال حكمي العادل ورهبتي من عشتار واكد رأيت رؤيا... وأرسلت رجالي بأعداد كبيرة للبحث عن حجر الأساس. ونقبت ثلاث سنوات في آثار نبوخذنصر، يميناً ويساراً، شمالاً وجنوباً، ولكن لم أعثر...". وأخيراً تمّ له العثور على ما أراد واستطاع أن يبني بطمأنينة بناءه الجديد.

كان للملك إلى جانب واجباته الدينية التي من ضمنها بناء معابد جديدة والشؤون العسكرية العديدة واجبات كثيرة أخرى ينبغي عليه إنجازها في مجال إدارة البلاد، فعليه مراقبة الموظفين الكبار ومتابعة نشاطاتهم وملاحظة خطط المشاريع الكبيرة في الزراعة وفي الممتلكات الملكية. وكذلك استقبال الوفود وجالبي الجزية. كل هذا ينظم بشكل رسمي صارم. ولاشك أن هذا يحتاج إلى وقت كثير، الأمر الذي يعطي العاملين في القصر فرصة عدم الاستغناء عن خدماتهم. ومن الأمور المسلّية للملك صيد الحيوانات الوحشية وزيارة الغرف الخاصة في قصوره ,حيث كان يسهر مع الموسيقيين والراقصات والمهرجين والمصارعين. وكان قصره يحتوي على مجموعة كبيرة من الأميرات والنساء من مختلف البلدان لإدخال البهجة إلى نفسه.

وكان تحت تصرف الملك حاشية ضخمة يوزع على أعضائها مختلف الواجبات وكان الولاة الذين يوجهون أمور محافظة بأكملها يعتبرون ضمن فئة الموظفين الكبار، وكانت الأعمال في القصر الملكي تراقب وتدار من قبل مختلف أصحاب المقام منهم الوزير ورئيس خدم القصر ورئيس السقاة ووزير المالية.

وكانت إدارة كافة شؤون البلاد تخضع لهؤلاء كالسياسة الخارجية وعقد الاتفاقيات الدولية وتنظيم الموارد الزراعية الكبيرة وكذلك الإشراف على الممتلكات التابعة للعرش. وكان رئيس خدم القصر مسؤولاً بالدرجة الأولى عن توظيف أعداد هائلة من العاملين لضمان راحة الملك وتحقيق احتياجاته، وعلى الوزير المختص الاهتمام بالمصروفات الضرورية، أما أمر تزويد الحروب والمشاريع الكبيرة بالمواد الضرورية فإنها مسألة غير سهلة، كان هو مسؤولاً عن كل الواردات والصادرات، وبالإضافة إلى هذا العدد الكبير من الوجهاء فإن أعداداً كبيرة من الموظفين المتوسطين والصغار يعملون في المكاتب المختلفة سواء داخل القصر أم في المدينة أو البلاد. وكان أكثر هؤلاء قد انحدروا من صنف كتاب العقود، إذ إن القراءة والكتابة كانتا ضروريتين للقيام بواجباتهم، وكانوا لا يقومون بواجب قيد السجلات من الواردات والصادرات فحسب بل بتسجيل كافة المعلومات حول الولادات والوفيات

بين السكان من إعطاء لمحة عن أعمال السكان ودفعهم للضرائب وكذلك عن الأشخاص البالغين سن الخدمة العسكرية.

وكان الموظفون يستلمون رواتبهم حسب مقامهم ودرجاتهم. ويتمتعون أيضاً بالمكافآت الخاصة التي تسد حاجاتهم الشخصية وكنفقة لعوائلهم كانوا يستلمون عادة قطعة أرض يقومون بزراعتها أو تأجيرها، وبالإضافة إلى ذلك كان الموظفون الكبار يستلمون رواتب نقدية وقد عثر في قصر خرساباد على قائمة تحتوي على معلومات تؤيد ذلك:

القائد العام للجيش: ١٠ مينات فضية، ٥ ملابس من النوع الجيد و٥ اعتيادية.

الوزير الأول: ٦ مينات فضية، ٣ بدلات من النوع الجيد و٢ اعتيادية.

رئيس القضاة: ٣ مينات فضية، ٣ بدلات من النوع الجيد.

نائب الوزير: ٣ مينات فضية، ٣ بدلات من النوع الجيد.

وزير البلاط: ٥ مينات فضية، ٣ بدلات من النوع الجيد و٢ ملابس اعتيادية.

مدير القصر: ١ مينة فضة، بدلة واحدة من النوع الجيد.

وكان بعض الموظفين الكبار يحصلون على موارد إضافية وذلك بتعيين بعض الموظين واستقطاع جزء من رواتبهم لأنفسهم.

وكان الموظفون المسؤولون عن الضرائب يعينون مباشرة من قبل الملك، وهؤلاء يتحملون مسؤولية التأخير في استحصال الضرائب في مواعيدها المقررة، وكان المجموع العام للضرائب يقدم عادة إلى القصر الملكي، وبعض جباة الضرائب الكبار يقدمون الضريبة من حسابهم الخاص إلى الملك سلفاً ثم يبدأون بعد ذلك باستحصالها من السكان، وكان معظم أولئك يحصلون من وراء هذه الوسيلة أرباحاً هائلة، حيث يتعسفون في رفع الضرائب بشكل كيفي والضغط على السكان. وكان على الفرد أن يسجل لدى الدولة كل أملاكه وموارده. وفي عهد حمورابي يجب على كل مواطن حر أن يدفع ١٠٪ من موارده إلى الدولة - أما أنصاف الأحرار فعليهم دفع ١/٣-٣٣٪ من مواردهم. وفي الحالات الاستثنائية التي يحتاج فيها الملك إلى المال ترتفع الضرائب إلى ٥٠٪ وتتكون الضرائب من المواد العينية والنقود.

وبالإضافة إلى ذلك على الناس أن ينجزوا بعض أعمال السخرة في البناء ولاسيما المعابد. وللملك حق استدعاء المواطنين عند البدء بالمشاريع الضخمة.

ويرينا هذا النص مدى اهتمام الملوك باستحصال الضرائب في أوقاتها المحددة:

"إلى مردوخ - ناصر وقضاة سبار - أمنانوم تكلم: إذن (يقول) أبي - أيشوخ: "قال لي جابي الحملان، بأنكم لم تجلبوا ضريبتكم إلى بابل. ضريبتكم المتكونة من ٣٠ حملاً. لماذا لم تجلبوا حتى الآن الثلاثين حملا، ضريبتكم إلى بابل؟ كيف سمحتم لأنفسكم أن تتصرفوا بهذا الشكل؟ أرسل إليكم الآن فارساً وفور رؤيتكم لرسالتي هذه أرسلوا ضريبتكم المتكونة من ٣٠ حملاً. وإذا لم تجلبوا ضريبتكم فسيكون جزاؤكم دفع شقل فضي واحد عن كل رأس حمل"

كان الملوك يعملون دوماً وفي كل العهود من أجل إيجاد مصادر جديدة للضرائب وإجبار المواطنين على دفع الضرائب لكل شيء سواء أكان ذلك يتعلق باستعمال مشاريع الري أم بطرق المواصلات التجارية ولذلك كانت مسألة الإعفاء من دفع الضرائب، أمنية يتمناها بعض أصحاب الامتياز، وكان الملك يمنحها أحياناً لبعض أفراد حاشيته والعاملين في بلاطه. وكانت المعابد تجاهد دوماً للتخلص من تلك الضرائب والمدن التجارية الكبيرة أيضاً تحاول دائماً الحصول على امتياز عدم دفع الضرائب، أو دفع ضرائب خفيفة على الأقل، وفي أوقات العوز كان الحكام يضطرون إلى إجراء تخفيض عام في دفع الضرائب حتى لا تقع الفئات السفلى والمتوسطة من رعايا الملك في أحضان الديون، إلا أن مثل هذا الإجراء لا يدوم طويلاً، إذ إن القصر والأعداد الضخمة من المعابد والحملات العسكرية تحتاج إلى كميات كبيرة من الأموال، وكانت الحملات العسكرية الناجحة تخفف من عبء الضرائب، إذ إن الغنائم التي تجلب بعد احتلال المدن السورية والفلسطينية التجارية الغنية تسد الاحتياجات الكثيرة.

كانت واجبات الرعايا قد حددت قانونياً، وكان تثبيتها كتابة يعود إلى رغبة الملك، وكان الملك هو الواضع الأعلى للقوانين وذلك بتفويض من آله الشمس، الذي يعلم كل شيء ويرى الخير والشر، ويحكم في السماء، وهكذا عرضت الصورة أيضاً في مسلة حمورابي، أن مجموعة قوانين حمورابي الزاخرة تعتبر من أقدم المصادر الهامة لمعرفة القوانين القديمة، إذ إنها تعطي المعلومات حول مختلف مناحي الحياة، ويمكن الرجوع إلى تلك القوانين عند دراسة المجتمع البابلي الطبقي من نواحي الاقتصاد والتجارة والحرف والعائلة والسحر...

وهي تحتوي على ٢٨٢ مادة مرتبة ولكنها غير مسلسلة حسب المواضيع المتناولة. ولم يكن حمورابي أول من وضع القوانين فمنذ مئات السنين قد نظمت قبله

نتيجة تعامل الناس مع بعضهم ولاسيما بعد ظهور المجتمع الطبقي والفروق الكبيرة بين الفئات الاجتماعية، نظمت قواعد معينة للتعامل سرعان ما اتخذت طابع الضرورة، وأصبح القانون أداة للملوك يثبتون بها حكمهم، وسجل السومريون القوانين الاعتيادية التي كانت تتناقلها الأجيال شفوياً منذ مئات السنين عبر الثلاثة آلاف سنة الماضية، ومنذ هذا الوقت أصبحت العناية بالقوانين تقليداً ومن الواجبات الأساسية للحكام وأخيراً قام حمورابي من خلال موظفيه بجمع القوانين القديمة وإعادة النظر فيها وجعلها ملائمة للوضع القائم في عهده، وفي كل الأحوال ثمة سؤال مفتوح... ترى أي تأثير كان لتلك القوانين على الحياة اليومية... وما إذا كان الحكام حقاً يحكمون في ضوء تلك القوانين؟... يبدو من بعض النصوص القانونية كما لو أن العقوبات القاسية بمختلف المستويات لا تطبق وربما أنها كانت تستعمل لإدخال الرعب في النفوس فحسب. وكانت مسلة حمورابي مثار إعجاب لمئات السنين وهي موضع الاحترام العظيم كما تثبت ذلك بعض المواد التي أضيفت إليها مؤخراً... ولما كانت هناك مواد دونت بصورة مقتضبة، فإن متابعة تطور القانون خلال مئات السنين تكون غير خالية من الثغرات. ومن العهد البابلي الحديث بقيت ثغرة قانونية صغيرة تعطينا معلومات قليلة جداً. وهكذا عند ملاحظتنا للقوانين في الألف الأول ينبغي الرجوع إلى قوانين حمورابي لكي نأخذ الاستنتاجات بتحفظ.

أما عقوبة الموت فقد نظمتها أربعون حالة جرمية من ضمنها حالات سرقة الأموال العائدة إلى القصر الملكي والمعبد أو في حالة التسبب في حريق، وكان مشروع القانون يعاقب بالموت في حالات الاتهام الكاذب عند الجرائم الكبيرة وفي حالات هدم الحياة الزوجية، القتل المتعمد، الفسق بالأهل، وكانت نوعية الإعدام مختلفة وتتعلق بنوعية الجريمة، ويمكن تنفيذ حكم الإعدام بالمحكوم غرقاً أو حرقاً أو وضعه في قفص إلى أن يموت ببطء. وفي الحالات الجرمية الصغيرة يعاقب المحكوم بفقء إحدى عينيه أو قطع إحدى يديه أو إحدى أذنيه كما كانت هنالك تطبق عقوبة الجلد.

أما الطبقات الغنية فتعاقب بدفع الغرامات الكبيرة، مثل هذه العقوبات لا جدوى من ورائها بالنسبة إلى العبيد، إذ إنهم لا يملكون أي شيء، وفي حالات حدوث أضرار على المسبب أن يعوض للمتضرر كل ما تسبب من خسائر وأحياناً غرامة إضافية، ويمكن للمبالغ المستحقة أن تخضع للارتفاع ويمكن أن ترتفع من الضعف إلى ثلاثين ضعفاً، والحالة الأخيرة تطبق في حالات حدوث الأضرار بأموال

القصر أو المعبد، وفي بعض الحالات كان المذنب يطرد من بيته ومن المجتمع وبالتالي يفقد كل ممتلكاته، وعليه أن يقيم ويعمل خارج نطاق العائلة وحماية الآلهة. ومثل هذه العقوبة تنفذ في حالة الفسق بالأهل كاضطجاع الأب مع ابنته أو بعض الحالات المشابهة الأخرى، وللأب أن يطرد ابنه من بيته في حالة تكراره الأعمال الجرمية وبذلك يفقد الابن كافة حقوقه الوراثية، وعند ملاحظة القوانين المتعلقة بالعائلة البابلية يمكننا أن نتوصل إلى استنتاجات عديدة حول مركز المرأة والحياة الاجتماعية وتربية الأطفال، وكانت المرأة البابلية غير مسلوبة الحقوق، إذ إنها تستطيع مثلاً أن تعمل في المجال الاجتماعي وتوقع على العقود واحتلال بعض المراكز في الإدارة العامة، ومع ذلك كانت غير مساوية للرجل الذي يحتل المراكز الهامة وهناك حالات استثنائية تناط فيها بالمرأة المراكز المهمة مثل مراكز الخدمة في المعبد، حيث اقتصرت على نساء القصر والطبقة الراقية، وفي الحياة المنزلية كانت المرأة خاضعة للرجل ونادراً ما كان لها حق اختيار شريكها في الحياة، إذ إن الأب هو الذي يختار الزوج لابنته، ويقدم لابنته المهر للزواج في حين كان على العريس دفع مبلغ معين كمهر للعروس، يبقى عند الأب. وبعد ذلك يجري العقد كتابة وإلا فإن الزواج يعتبر غير شرعي، وهذا نموذج لعقد من العهد البابلي القديم.

"(إن) عشتار - أومي، ابنة بوزازوم ولاماسساتوم قد اتخذها وارد - زين، ابن ابني زين من أبيها... شريكته العائلية، و(قد) أعطى وارد - زين لبوزازوم وللاماسساتوم ٢/٣ رطل فضة مع عبد واحد كمبلغ للشراء وفي كل الحالات لا يحق لبزازوم واماسساتوم وأولاد بوزازوم بأية مطالبة لعشتار، إذا ترك وارد - زين عشتار - أومي، فينبغي عليه دفع رطل فضة، وإذا تركت عشتار أومي وارد زين، فإنها ستلقى من فوق البرج على الأرض، ويحلفان بالآلهة شماس وأيا وبمدينة سبار وبالملوك بأنهما لن يبديا أية معارضة"

وبعد ذلك يوقع خمسة عشر شاهداً على عملية عقد القران، ويجد المرء في نصوص الطلاق مختلف الشروط. وقد كان من الصعب جداً على المرأة أن تبادر بالمطالبة بالطلاق أو ينبغي أن تكون قد أهملت من قبل زوجها إهمالاً كبيراً، وإذا لم يعترف أحد بشكواها فإنها كانت تلقى في النهر أو تقتل بطريقة أخرى لتقديمها الاتهام الكاذب حول زوجها وكان الرجل لا يستطيع أن يترك زوجه بدون أن يقدم الأسباب المشروعة، ويجب عليه في كل الأحوال أن يدفع لها نفقة الطلاق مع المهر.

ومن الأسباب المهمة الداعية إلى الطلاق عدم الإنجاب أو إصابة المرأة بمرض عضال وعلى الرجل في هذه الحالة أن يضمن معيشتها وكان حق النفقة يسقط إذا أثبت الرجل كون زوجته مبذرة أو مهملة وحتى إنه يستطيع في بعض الحالات تحويلها إلى عبدة. وفي الوقت الذي كان للرجل الحق في الطلاق، كانت المرأة تلقى في الماء لتموت غرقاً فيما إذا طالبت بهذا الحق.

كان يسمح للرجل أن يتخذ إلى جانب زوجته الرئيسية عدة زوجات إضافية وكن يخضعن قانونياً إلى الزوجة الرئيسية وكانت ثمة وصائف يقوم أصحابهن باتخاذهن عشيقات، وكن يبقين حتى النهاية كعبدات حتى ولو أنجبن أولاداً ومن الممكن أن يعتقن بعد وفاة الزوج.

وإذا اعترف الرجل بأولاد العبدات علناً فهم في هذه الحالة كانوا يكتسبون حق الوراثة كما هو عليه بالنسبة إلى المرأة الشرعية ويصبحون أحراراً، وكان الزواج مسموحاً لكاهنات المعابد على أن لا ينجبن أولاداً، ولذلك كن يجلبن معهن عبدة لهذا الغرض إلى بيت الزوجية، إن معظم الكاهنات يملكن ثروات طائلة لهذا فإن الرجال كانوا يندفعون إلى الاقتران بهن، وتبقى العبدات في كل الأحوال في المركز السفلي.

من أهم أسباب الزواج البابلي هو إنجاب أكبر عدد من الأولاد الذين يستطيعون بعد وفاة الوالدين إنجاز الواجبات المطلوبة لأرواح الموتى، وإذا كانت العائلة لا تملك طفلاً، تقوم بتبني أطفال آخرين ليتمكنوا من القيام بتلك الواجبات، وكان الأب يملك الحق المطلق على أولاده، يستطيع أن يشغلهم في أي عمل يختاره. وثمة قوانين عديدة حول مسألة الوراثة منها أن الأولاد يتمتعون بحق الوراثة، وأما البنات فكن يأخذن حصتهن على شكل هبة وعلى الزوجة أن تبقى في البيت فقط ولها حق الاحتفاظ بمهرها بالإضافة إلى الهدايا التي تسلمتها من زوجها، وكان الابن الأكبر يحصل على حصة الأسد من الإرث، وغالباً ما يحصل على دار والديه، أما بقية الإرث فتقسم بشكل متساوٍ بين الإخوان. وفي قوانين العهد البابلي الحديث فروق بين أولاد الزوجة الأولى والثانية الشرعيتين، حيث يحصل أولاد الزوجة الأولى على نسبة٢/٣ وأولاد الزوجة الثانية على ١/٣ من الإرث تقسم بينهم.

ومن الواضح أنه رغم كل القوانين فإن المشاكل والحوادث اليومية كانت مستمرة ولا يمكن أن تحل من جانب المتخاصمين فقط، ولذلك فإنها تتخذ طريقها إلى المحاكم. تتكون المحكمة من عددٍ من الحكام تعينهم الدولة، تساندهم مجالس شورى

يتكون أعضاؤها من الشيوخ، وثمة بالتأكيد محاكم مختلفة تنظر في الشكاوى اليومية الاعتيادية وتحسمها بسرعة.

في حين أن القضايا المعقدة يمكن أن ترفع إلى الملك وكانت المحاكم تعقد اجتماعاتها عادة داخل المدينة، وربما أحياناً في أقسام معينة من المعبد أو القصر، وينبغي على الحكام أن يتسموا بالعدالة التامة، وقد جاء في المادة الخامسة من قوانين حمورابي: (إذا أصدر أحد الحكام حكماً في مسألة ما، وكتب بذلك وثيقة، ولكنه غيّر فيما بعد قراره، فإن هذا الحاكم يجب أن يدان، لأنه قد غيّر القرار الذي أصدره هو. إنه يجب أن ينال من العقاب الذي نتج من الدعوى المطروقة. أثنى عشر ضعفاً. وينبغي عليه أن يترك كرسيه في مجلس القضاة.

وكان القضاة عادة يحاولون قبل البدء بالمحاكمة مصالحة الطرفين المتخاصمين بما يرضي الجهتين. وإذا لم يتوصلا إلى الحل فكانت القضية تطرح على بساط البحث. وكانت الدلائل المادية والوثائق والشهود ضرورية لإيضاح الحقائق، وكان اليمين الكاذب وشهادة الزور يعاقبان بشدة، ذلك باعتبارهما إهانة لقدسية الآلهة، وكان القضاة يستندون عند إجراء المحاكمة على التعليمات المتواجدة وفي أكثر الحالات يلتجأون إلى العرف والتقاليد ولا يتوجب عليهم تبيان الأسباب عند إصدار القرارات.

ولمجرمي الدولة ممن يحاولون قلب نظام الحكم أو يهينون الملك، تشكل محاكم دولة خاصة يترأسها الملك.

كانت مساندة المعابد الكبيرة وعمل الخير لها يعودان إلى أهم أعمال الملك. وفي البداية كان الحكم الدنيوي والديني يتجسدان في شخص الملك، إلا أنه في العهود المتأخرة أنيط مركز الكاهن الأعلى إلى أحد أصحاب المقام من رجال الدين. وكان الملك يلعب دوراً مهماً في المناسبات الدينية والأعياد وفي العهد البابلي الحديث انتقل هذا الدور المهم إلى الكهنة. ومن هنا بدأت الصراعات على الحكم بين الملك وأعوانه من جهة وزمرة الكهنة من جهة أخرى. وقد أدت تلك الصراعات إلى عواقب وخيمة. وهكذا سقط ابن نبوخذنصر ضحية مؤامرة الكهنة الذين رفعوا أحد مرشحيهم إلى العرش. ولذلك كان الملوك يحاولون دوماً عن طريق الهدايا والبناء ومنح الامتيازات كسب تأييد المعبد لهم. وقد قام نبوخذنصر ببناء وتعمير أعداد كبيرة من المعابد ومحلات العبادة لتمجيد الآلهة البابليين في جميع أنحاء البلاد.

وكانت المعابد تشكل إلى جانب القصر الملكي أكبر المراكز التجارية في البلاد، إذ أنها خلال مئات السنين ونتيجة للعلاقات الودية المتينة مع الملك لم توسع كنوزها فحسب، بل أراضيها وأملاكها أيضاً. وكانت الامتيازات الممنوحة لها تحول دون دفع الضرائب إلى الملك، ولذلك لم يكن غريباً أن يستغل رجال الدين هذا الاحتياطي الهائل ليلعبوا دوراً مهماً في السياسة.

وكان لزمرة الكهنة تأثير كبير في كل العهود على أوسع جماهير السكان. وكانت تمارس ذلك عن طريق السحر وقراءة المستقبل ومعالجة المرضى. وكان جهل السكان يشكل مرتعاً خصباً لفرض سيطرة الكهنة الذين كانوا ينتمون إلى الفئة القليلة من المتعلمين في الدولة، إذ إنهم كانوا يتلقون في مدارس المعبد مختلف أنواع العلوم. وتوارثوا منذ أجيال عديدة أباً عن جد أهم المناصب وشكلوا بذلك فئة مسيطرة توجهها زمرة الكهنة التي ركزت الحكم والثروة في يدها. وكان الملك يحاول أيضاً وبشكل مستمر تعزيز نفوذه في المعبد.

وكان يمتلك عدداً من المناصب يحتلها بعض المتنفذين من أتباعه في المعبد. ولم تكن مسألة نادرة أن تحتل أحياناً إحدى الأميرات مركز رئيس الكهنة وكان يسمح للكهنة بالسكن في مقاطعة المعبد، وبإمكانهم السكن خارج المعبد أيضاً ومعظم الكهنة متزوجون وأصحاب عوائل ونسبة مواردهم متعلقة بالطبع بمراكزهم في المعبد وبمركز المعبد نفسه. ومن الأمور الطبيعية أن يحتل الكاهن عدة مناصب سواء في نفس المعبد الذي ينتمي إليه أم في معابد أخرى مختلفة. كان (سادن البيت) هو أحد المناصب المتوسطة في المعبد، ويستحق مثلاً في عهد الملك بنو - شوم - اشكون، الموارد التالية (يومياً ٦ سيلات خبز، ٦ سيلات بيرة جيدة، عصيدة، خبز حلو، لحم بقر، لحم غنم، سمك، طيور، مخضرات، منتجات التمر، حصة من القرابين الدائمية، قرابين الملك وقرابين العابدين) أما من الضرائب الاستثنائية والأوقاف الخيرية الصالحة والقرابين غير المنتظمة وكل موارد إزيدا أوكل ما هنالك فيستلم حصته منه حسب ما خصص (للسادن البيت) وبالإضافة إلى هذه الموارد يستلم موارد أخرى من البيوت والبلدان والمعاملات التجارية التي كان يساهم فيها. ولما كان الكهنة لا يستطيعون استهلاك كل ما يقدّم لهم من المواد الغذائية يومياً، فإنهم كانوا يتاجرون بذلك تجارة مربحة. وكانوا عادة يبيعون مصادر المورد أو يؤجرونها لفترات متباينة بحيث إذا انتهت المدة المقررة يتم البدء بعقد جديد. وبهذا لا يمكننا أن نتصور حياة

سيئة للكاهن. وطالما كان السكان يشكون من إجحاف الكهنة ولاسيما بالنسبة إلى الضرائب الخيالية التي يفرضونها لدفن الموتى، حتى إن الملك يضطر أحياناً للتدخل ضدهم.

لم يكن الكهنة كلهم يتمتعون بمثل هذه الموارد العالية، فقد كان لهؤلاء أيضاً مراتبهم. وحيث إن الكهنة متخصصون في مجالات مختلفة فإن التوظيفات كانت كبيرة ومتعددة الجوانب في المعبد. وإنه لمن الصعوبة بمكان اليوم ذكر الفروق بشكل دقيق بين مختلف الاختصاصات والمراكز، ولكننا نستطيع حصر بعض المراكز المهمة فقط. فمثلاً كان (اوريكالو) يلعب دوراً مهماً في عيد رأس السنة وكانت له فيه مكانة كبيرة، في حين أن (سدنة البيت) يشكلون أعداداً غير قليلة في كل معبد، ويتقدمون بمختلف الأعمال إلى جانب حمل تماثيل الآلهة، وإلى جانب هؤلاء كان ثمة كهنة غسالون ومنظفون ممن كانوا يعتنون بنظافة المعبد وبيوته وأما الكهنة الدهانون فكان عليهم الاعتناء بالأدوات المقدسة والتماثيل ومسحها بالزيت. وكان قارئو الفال وأمثالهم يشكلون فئة كبيرة يتقاطر عليهم السكان من كل صوب وحدب. وعلى الكهنة طرد الأرواح من البيوت والمدن ومعالجة الأمراض التي جلبتها القوى الشريرة وعليهم تكريس أنفسهم لخدمة الآلهة والمعبد أو العمل في مراسم العبادة للموتى، ويمكن تقسيم قراء الغيب حسب طريقة قراءتهم للمستقبل فمنهم من كل يستعمل الكبد أو الآنية أو جناح الطير أو السهم وقسم آخر يعمل في حقل تفسير الأحلام. ولا يمكن الاستغناء عن الموسيقيين والمغنين لمراسم العبادة والأعياد ومناجاة الموتى. وكل هؤلاء يشكلون قسماً صغيراً من العاملين في خدمة المعبد بالقياس إلى العدد الهائل من العمال والحرفيين والخدم والكتاب والمراقبين والعبيد الذين كانت إدارة المعبد تتم بوجودهم وخدماتهم المباشرة. وبالإضافة إلى ذلك كان في المعابد نساء كاهنات في السحر والشعوذة أو كموسيقيات وإلى جانب رئيس الكهنة توجد رئيسة للكهنة أيضاً. ويحتمل أن بعض الكاهنات الدنيا في بعض المعابد كن يمارس البغاء المقدس.

ومن الجلي أنه ينبغي أن تكون مقاطعة المعبد كبيرة، بحيث تكفي لضم العدد الضخم من العاملين في مرافقها. كانت المعابد البابلية ضخمة جداً وأشبه بمجموعة بيوت سكنية واسعة كما أنها مبنية على نفس الطريقة السكنية. وكانت تحيطها من جميع الجهات أسوار عالية لها بوابة مركزية كبيرة بأبراج أمامية، وكان مركز هذا

المرفق الكبير هو الفناء الواسع الطلق، وكانت البوابة تقابل مباشرة فسحة الاله الرئيسة التي تحيطها الأبراج من الجانبين أيضاً، ويمكن للمرء أن يشاهد نصب الاله من الفناء داخل مصلى في الجدار الضخم، وكانت فسحة العبادة تتميز دائماً بجدرانها السميكة جداً إلى جانب الفخامة والأبهة. وفي الغرف الممتدة بجانب محراب العبادة ثمة أدوات للعبادة من ضمنها السفينة والعربة لمواكب رأس السنة الكبرى وثمة في ساحة المعبد عادة حوض كبير، إذ إن إجراءات مراسم العبادة والقضايا الأخرى تحتاج إلى الماء، ويحتمل أن بقية الغرف تستعمل لسكن العاملين في خدمة المعبد والذين يقومون بإنجاز الأعمال والواجبات اليومية المتعددة.

كان معبد مردوخ الرئيسي في بابل يتميز في أهميته عن بقية المعابد الأخرى بضخامة بنايته وأبهته، وكان الزائر لا يجد فيه محراب الاله مردوخ فحسب، بل فسحة عبادة لزوجته ساريانيتوم مع عدد آخر من الآلهة أيضاً، وكانت تماثيل الآلهة المقدسة جداً توضع على قواعد خاصة، إما جالسة على عروش مزخرفة أو واقفة، وكانت قد نصبت أمامها موائد القرابين المصنوعة من الطين أو المعدن وهي معدة للقرابين اليومية، ويحتمل أن ذبح الضحية يجري على مذبح أمام المحراب، وكان الكهنة يقدمون في أباريق رفيعة فدية الشراب التي يملؤون بها أحواضاً صغيرة مختلفة، وكان البخور والعطور الكريمة الأخرى تحرق في أطباق مسطحة وأوانٍ حجرية مزخرفة ثبتت على حمالات عالية تمتد على جوانب الهيكل، ويمكن أن توضع في الغرف المختلفة للمعبد الرئيسي تماثيل الآلهة التي تجلب إلى بابل بمناسبة عيد رأس السنة من مختلف مدن البلاد.

كان البابليون لا يعبدون إلههم الرئيسي مردوخ في معبد ايزانجيلا فحسب، بل في برج ايتميناكي "بيت الحجر الأساسي للسماء والأرض" أيضاً. يقع البرج بقمته العالية مباشرة إلى جانب المعبد في مركز مدينة بابل، ومن الأسوار الطينية يحيط بالقطاع حاجز يعزله عن العالم الخارجي. وكان ينبغي دوماً تعمير وإعادة بناء هذا البرج الذي يرجع أصله إلى عهد حمورابي. ولقد بذل والد نبوخذنصر جهوداً كبيرة لإعادة بناء الزقورة، ولكنه لم يشهد اكتمال البناء، وقد استطاع نبوخذنصر أن يوصل برج المعبد إلى ذروة البهاء والروعة، وقد بناه بالطابوق المفخور وبطنه بالطوب المجفف في الشمس، أما البناية فهي عبارة عن شكل مربع مملوء الجوف، طول كل جانب من طابقه الأدنى يتكون من ٥٥ . ٩١م. وترتفع فوقه خمسة طوابق أخرى

تتدرج في الصغر مع الارتفاع، أما الطابق السابع والأخير فإنه يشكل معبداً طوله ٢٤ وعرضه ٢١م وارتفاعه - حسب ما جاء في إحدى اللوحات الطينية حول الزقورة - ١٥ متراً، وهذا المكان هو منام مردوخ الخاص حيث جهز له سرير ومائدة من الذهب، وكانت جدران برج المعبد قد زوقت بالأفاريز والنتوءات التي أعطت المساحات الكبيرة حركة هندسية جميلة، أما المعبد الواقع على القمة فقد زوق حسب كلمات نبوخذنصر "بالطابوق المطلي بالأزرق الفاتح" وكان عدد صغير فقط من الكهنة يسمح لهم بالتمتع بشرف الصعود إلى قمة الزقورة، ورغم أن معظم مدن ميزوبوتاميا تملك زقورات لآلهتها الرئيسية فإن المعبد المدرج في بابل بقي دوماً نقطة جذب مهمة وكانت شهرته قد طبقت الآفاق ولاسيما في عهد نبوخذنصر.

وبالتأكيد فإن ارتفاعه الذي تجاوز ٩٠ متراً جعله يفوق كل الزقورات الأخرى، هذا بالإضافة إلى أن الاله مردوخ يعتبر الرب الأعلى لكافة الآلهة البابليين، ويرجع شكل الزقورة في الواقع إلى العهود السومرية حيث تطور عبر مسيرة الثلاثة آلاف سنة من شكل المعبد القائم على مسطحات مدرجة إلى ما أصبح عليه في العهود المتأخرة، كما وينبغي ملاحظة أن برج بابل كان إلى حدٍ ما تتويجاً لمجمل فن بناء المعابد في بلاد الرافدين والذي بلغ حقاً ذروته ونهايته.

عالم الآلهة

كان البابليون يطيعون عالماً زاخراً بمختلف الآلهة، عالماً يمكن إرجاع جذوره إلى العهود السومرية، وعند أخذهم بالآلهة السومرية لم يغيروا منها سوى الأسماء، في حين بقيت وظائف وواجبات الآلهة كما كانت عليها من قبل، وقد كان عالم الآلهة عند السومريين قد صنف حسب الدرجات وحسب مركز كل إله ضمن العوائل والطوائف، لقد بني التشكيل الهرمي لمراكز الكهنة حسب نظام المجتمع الدنيوي وشكل الدولة، وكان يجلس على القمة الاله السومري آنو الذي يعتني ببيته بنفسه رغم كونه سيد السماء، ورغم مركزه الكبير فإن الإله آنو يعبد نسبياً وفي معابد قليلة، إذ يعتبر غير قريب إلى الناس وعدواً لهم، ولذلك لم تكن العلاقات جيدة بينه وبين البشر، وفي العهد السومري اتخذ ابنه انليل مكانه في الكثير من المجالات، كان باسمه السومري الذي يعني "رب نَفَس الريح" يرتقي القدرة لإدراك أقدار العالم وتقرير مصير الخصوبة في الطبيعة وعند البشر، وكان مسيطراً على قوى الطبيعة كالعواصف والفيضانات والاضطرابات الأخرى وهو يتمكن من معاقبة الناس بحسن تقديره وحصافته، وهكذا استدعى الطوفان الذي أراد به إبادة الحياة من على الأرض، وهو الذي ألحق السوء بالابطال الميثولوجيين مثل كلكامش وأنكيدو، إن الأمثال القليلة ترينا بأن انليل كان أيضاً مثل آنو، إلهاً صارماً يعاقب بشدة، لهذا فإن حصوله على ثقة الناس كان يبدو أمراً صعباً.

وكان الاله المسمى اينكي من قبل السومريين وأيا فيما بعد من قبل الشعوب

السامية، ينتصب تماماً بالضد منه، وكان ابن انليل إله أعماق المياه. إن الاعتقاد السائد عند السومريين هو أن المياه هي مكان الحكمة، لذلك يعتقدون بأن كل الإنجازات المهمة للناس إنما هي بفضله هو - وهو المعضد للحرفي والحكيم والعالم، وقد جرى اختراع الكتابة أيضاً بمعونته، وقد أعطته عبقريته بصيرة ثابتة لاستطلاع الأسرار العميقة للسماء والأرض، لذلك يعرف الأدوية الخاصة ضد الأمراض وسوء الحظ والسحر...

وتخضع له علوم الغيب مثل التكهن والسحر والشعوذة. وكان الناس يلتجؤون إليه في طلب المعونة والاستشارة وحسب ما جاء في ملحمة تكوين الخليقة، كان أيا هو خالق البشر، حتى إنه أعد الإنسان بيده من الطين ودم كنكو الهائل. ولمزاياه الحسنة فقد - لقب عكس الالهين المذكورين - دور الصديق للإنسان كما جاء في ملحمة جلجامش، ورغم أنه كان ممنوعاً عليه إنذار الناس قبل وقوع الكوارث فإننا نراه هنا وهو يبلغ كوخ اتونا بشتم القصبي(*) بوقوع الكارثة:

"يا كوخ القصب : يا كوه القصب : يا جدار ، يا جدار
إسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط
يا رجل ، شروباك ، يا ابن "ادبار - توتو"
قوض البيت وابن لك فلكاً (سفينة)
تخلّ عن مالك وأنشد النجاة
أنبذ الملك وخلص حياتك
واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة
والسفينة التي ستبني ، عليك أن تضبط مقاسها
ليكن عرضها مساوياً لطولها
واختمها جاعلاً إياها مثل مياه "ابسو"

كان العالم قد قسم إلى ثلاثة أقسام يحكمها هؤلاء الآلهة الثلاثة: آنو، يملك السماء والهواء، وانليل، الأرض وأما أيا فيملك المياه، كانوا يشكلون الثالوث الأول من الآلهة، والذي حدد من قبل الكهنة وسجل في القوائم، وفي الثالوث الثاني إله للشمس "شماش" وزين إله القمر والآلهة عشتار. وكان القمر عند البابليين من

---

* - اعتمدنا في ترجمة هذا المقطع على الطبعة العربية من "ملحمة جلجامش" ترجمة الأستاذ طه باقر .(ز .د) .

الكواكب المباركة، يمجد في بعض الأحيان أكثر من الشمس التي ترسل أشعتها اللافحة طيلة أيام السنة إلى البشر.

وكانوا يعتقدون أن القمر إنما هو أبو إله الشمس، وكان القمر بالنظر لتغيير شكله بصورة مستمرة يحاط بالأسرار والغموض. كان البابليون يعتبرونه (خصوبه تثمر من تلقاء نفسها). ولكل من أشكاله اسم شاعري، ومن خلال مراقبة بزوغه تعلم الإنسان تقسيم الوقت، ولذلك كان زين "رب ومثبت اليوم والشهر والسنة"، أما معابده فتتواجد بشكل خاص في حران واور، وجعل منه نبونيد أحد أحفاد نبوخذنصر إلهه الرئيس.

وكان إله الشمس المكرم (اوتو) في عهد السومريين، يحمل في زمن البابليين اسم شماش، انه مضيء الأرض، حاكم السماء ومنوّر الظلام في الأعلى وفي الأسفل يتخذ طريقه كل يوم طالعاً من الجبال، حيث الأبواب المؤدية إلى السماء، تفتح له من قبل الآلهة التابعين. وفي السماء يهبط مرة أخرى إلى البحر، وفي الليل يمرّ بعربته عبر العالم الأسفل حتى يتمكن الموتى من أخذ النور والطعام. وكان في طريقه يرى الجور والظلم ويدين الأعمال الشريرة عند الناس، وبذلك يسمى الحاكم الأعلى، الذي - كما قال حمورابي، "قد أعطى الحق والعدالة للناس. وساعد التجار والبحارة والصيادين الذين كانوا دوماً على الطريق لانجاز أعمالهم الخطرة، وكذلك يعاون المرضى والضعفاء وينقذهم" ولا يمكن لأي شيء أن يختفي أمام أشعته المضيئة، لذلك يترا ءى له المستقبل من خلال الوحي، وكان ينادي من قبل الكهنة ما يأتي:

"شماش: ملك السماء، والأرض، الذي يدبر كل شيء في الأعالي وفي الأسفل: شماش، إن إعادة الموتى إلى الحياة، وفك المقيدين إنما (من شأن) يدك: الحاكم الذي لا يرشى، والذي ينظم البشرية، النبت السامي لمولانا نامرا سبيت: الابن العظيم القوي المتصبر، ونور البلدان، خالق كل شيء في السماوات والأرض هو أنت ياشماش".

وكان كافة الآلهة الذين ورد ذكرهم حتى الآن متزوجين، حسب تصور البابليين، وكانت زوجات الآلهة يلعبن دوراً تابعاً، وقد جرى ذكرهن في الميثولوجيا على الهامش فقط، كن يساعدن أزواجهن في توجيه أعمالهم ويمجدن عامة كآلهة الخصب.

كن يتحركن في ظل الآلهة عشتار، التي صورت في عالم الآلهة البابلي في مصاف الآلهة الكبار وتعتبر عشتار كابنة لزين، وارتقت من مركز عشيقة الاله آنو إلى زوجته الشرعية، ولذلك سميت فيما بعد بسيدة الآلهة، كانت عشتار متعددة الجوانب تقوم بأداء مختلف الواجبات، فمن جهة تقوم بواجب آلهة الحب والخصب والرفاهية والازدهار للبلاد، ومن جانب آخر تصوّر كآلهة للحرب والمعارك، وكانت

تتقدم الملك المنتصر في الحرب، وكامرأة مغرية تسحر الرجال، ولكنها تقودهم إلى المصائب، وقد جرى ذكرها بالمدح في كثير من الأناشيد البابلية.

وفي الميثولوجيا السومرية وضعت مع بعض التحفظ بمرتبة أنين واعتبرت عشيقة وزوجة البطل الشاب تموز، إلا أنها أخيراً خانته فاستحقت النزول إلى العالم الأسفل، ولقد عبدت هذه الآلهة تقريباً في كافة مدن الرافدين في معابد خاصة بها، وكان معبدها الرئيس يتواجد منذ أقدم العصور في أوروك، وقد أهدي لها معبد كبير في بابل.

أما الإله أداد فيجسد قوى الطقس وتخضع له الأمطار والعواصف والبرد والبرق، ويعتبر أيضاً إلهاً للخصوبة والسيطرة على الطوفان والفيضانات والكوارث المدمرة، وقد تحسن مركزه بشكل خاص منذ العهد البابلي القديم، إذ إن تأثيره في سومر - حيث الأمطار القليلة - لم يكن حاسماً كما كان عليه في المناطق الشمالية من وادي الرافدين وسورية حيث تعتمد الزراعة على الأمطار. ولقد ازداد تأثيره خلال هجرة القبائل السامية التي أكرمته كثيراً واعتبرته "سيد حواجز السماء". وقد أبرزت سيطرته على الطبيعة في الألواح من خلال رموزه - حزمة من شرارات البرق والنار - وكان يعتبر في نفس الوقت سيداً للوحي إلى جانب شماش، لذلك ينادى دوماً عند إجراء طقوس السحر.

وبالإضافة إلى السماء والأرض والمياه، يأتي ذكر القسم الرابع، أو بالأحرى العالم الأسفل، الذي يخضع لسيطرة الآلهة أيضاً، أما الآلهة اريشكيكال فتعتبر السيدة الأعلى على "أرض بلا عودة"؛ وهي شقيقة عشتار، ولكنها لم تستطع أن تبلغ أهميتها أبداً، وتحسدها على مركزها، وعندما جاءت عشتار إلى العالم الأسفل عوملت من قبل اريشكيكال بقسوة كبيرة وأرغمت على نزع ملابسها وحليها أمام البوابات السبع، حتى تكون عارية تماماً أمام سيدة العالم الأسفل، وكان نزوح عشتار إلى العالم الأسفل مؤخراً، مرتبطاً بالعديد من الصعوبات. وعندما نزل الإله نركال ذات يوم إلى الأعماق تمكن من إخضاع ايريشكيكال وجعلها زوجته. وبذلك أصبح نيركال هو المسيطر على العالم الأسفل، ولكنه بقي مع ذلك مرتبطاً بالأرض، وكان يجسد بعض ظواهر الطبيعة غير المريحة مثل حرارة الشمس والحمى والأوبئة.

إن الأهمية السياسية لمدينة ما تنعكس على أهمية الاله نفسه أيضاً وهذا ما يرينا إياه مثال الاله مردوخ الذي لعب في العهد السومري دوراً تابعاً فقط، وعند بدء

النهضة البابلية بزعامة حمورابي وأحفاده تم دفع هذا الإله إلى المركز الأمامي ومن ثم جعل منه الاله الأعلى لعالم الآلهة البابليين. لقد أزيح آنو وانليل من مركزيهما، وكان أن عهدت مهمة حكم البشرية إلى مردوخ، وفي الميثولوجيا أيضاً احتل مردوخ مركز الالهين الكبيرين، وفي ملحمة "اينوما ايليش" (هناك في الأعالي) اتخذ دور خالق العالم.

وقد أزاح مردوخ، ولاسيما في العهد البابلي الحديث وتحت زعامة نبوخذنصر، العديد من الآلهة من مراكزهم. لقد كانت كلها أشكالاً تعبر عن ظاهر شخصيته الهائلة. وكانت الخصال الحميدة كلها من صفاته، إذ لقب (سيّد البلدان). لقد جعلته عبقريته المستشار الذي يلتجئ إليه الناس لحل مشاكلهم وكان هو صديقهم المخلص يشفي المرضى والمسحورين، وكان معبده العظيم ايزانجيلا والبرج التابع له يتواجدان في بابل بالذات.

وكانت الآلهة ساريا نيتوم تقدس كزوجة مردوخ وهي تساعده وتحافظ عليه، ولما كان مردوخ يعتبر الاله الأعلى، لذا فهو يملك حاشية كبيرة تضاهي الحاشية الملكية وتتكون من الوزراء والمشرفين والبوابين والخدم والسدنة والسقاة والحلاقين والخبازين وغيرهم من العاملين، وكذلك ساريا نيتوم، حيث تملك حاشية كبيرة أيضاً. وكان بنور إلهاً للكتبة ومعضداً للنبوغ والعلوم إذ هو كاتب مردوخ إذ هو موضع ثقته، حيث يكتب له ألواح القدر، وله تأثير كبير في هذه العملية. ورمزه ريشة الكتابة، وقد أصبح في نفس الوقت إله النبت. وأما بقية الآلهة فلم يكونوا ذوي شأن يذكر بالمقارنة مع مردوخ وايا، إذ إن واجباتهم كانت محصورة في مجالات محدودة جداً، فمثلاً أن نينورتا قد أصبح فيما بعد إلى جانب دوره كإله للنبت رباً للقتال والمعارك، وكان للاله ايرا مضمون مشابه لاله العالم الأسفل نيركال، ولما كان بصفته مسيطراً على الطاعون والأوبئة، لذا فهو يستطيع أن يسلط ذلك على البشر حسب مشيئته ونيسكو إله النور والنار، وكولا آلهة العلاج والشفاء.

إن معظم الآلهة المذكورة هنا كانوا لا يملكون رمزاً يمثلهم فحسب، بل يصورون مع حيوان مقدس أيضاً، وكان يرمز إلى مردوخ بكائن غريب يسمى، موشي خوش شو "الذي يشبه رأسه وجسمه الحية والقوائم الأمامية تمثل قوائم الأسد وأما القوائم الخلفية فتمثل مخالب طائر والذنب لعقرب والأسد رمزاً لعشتار، في حين أن الثور يمثل إله الطقس"

ولما كان البابليون يهتمون بعلم الفلك والتنجيم، لذا فهم يرون الآلهة في

السماء من خلال كواكب معينة، وكان زين وشماش يمثلان القمر والشمس، في حين كان مردوخ يمثل المشتري ونركال يمثل المريخ، وعشتار تمثل الزهرة وبنو يمثل عطارد، وغالباً ما كان يجري الاعتقاد بتصور الالهة من خلال هذه الرموز من الكواكب، وعمل الكهنة البابليون وقبلهم الكهنة السومريون في حقل علوم الغيب، حيث تطورت عبر ذلك عمليات الحساب فهم يعطون كل إله رقماً مقدساً، يستعمل أيضاً في الكتابة المسمارية وكان أعلى رقم يملكه آنو الذي كان في البدء رئيس الآلهة. وكان هذا الرقم يعادل أعلى رقم في النظام الستيني أي الرقم (٦٠) وكان انليل يملك الرقم (٥٠) وايا (٤٠) وزين (٣٠). ولما كان مردوخ قد انضم إلى هذه الفئة العليا من الآلهة القدماء مؤخراً، لذلك أعطي له الرقم (١٠) الذي كان يمثل الاله أداد في نفس الوقت.

كان السومريون ومن ثم البابليون يتصورون آلهتهم في هيئة الإنسان وأكبر من الحجم الطبيعي وبوجوه لماعة، وعند التنفس كانت تصدر من أفواههم ألسنة النار. وكانت قوة الآلهة لا تعرف الإعياء. ولم يكن في وسع أحد الوقوف في طريقهم، وكانت التماثيل الموجودة في المعابد تري نماذج واقفة أو جالسة وقد ارتدت الملابس الفاخرة واعتمرت تيجاناً أو قلانس ثبتت عليها قرون الثور التي ترمز إلى الألوهية، وتتكون التماثيل عادة من الخشب المغطى بالذهب أو المعدن، وكانت الوجوه قد طعمت بعيون واسعة من العاج أو الحجر وثمة أعمال فنية من الذهب الخالص، وكانت الآلهة تحمل عادة رموز سلطتها، فكان مردوخ مثلاً يحمل الحلقة والعصا، وأيا يحمل الأواني التي تفيض بالمياه كرمز لاله الماء، وتتفرع من أجساد آلهة الخصوبة وأكتافها الأغصان والسنابل وسنفات الخشخاش. وفي رأي الشرقيين القدماء، أن هذه التماثيل إنما كانت تملك أيضاً قوة الآلهة التي تمثلها، ولذلك كان العدو المنتصر يجلب معه تماثيل الآلهة إلى بلاده حتى يتمكن من اكتساب قوة الالهة الغرباء. كان تمثال مردوخ قد نقل عدة مرات إلى آشور ثم استقر أخيراً في بابل. والكهنة يؤكدون أن الاله كان غاضباً وأنه ترك البلاد لهذا السبب، وغالباً ما كان الأعداء يحطمون تماثيل الآلهة الغرباء حتى يتمكنوا من تجريد البلاد والآلهة من سلطتهما، وكانت قوة تمثال الاله يمكن أن تستعمل للأغراض الحسنة، وهكذا أرسل الملك البابلي تمثال عشتار الناجع من نينوى إلى مصر لمعالجة الفرعون المريض، وكما أن الآلهة قد صورت في هيئة إنسان، فقد نسبت إليه أيضاً مزاياه وبالرغم من أنهم كانوا يعتبرون من الخالدين فقد كان يمكن أن يواجههم الموت، كما ويمكن أن يحيوا من جديد بماء

الحياة، وكانوا يحتاجون إلى الغذاء والطعام كالبشر غير الخالدين، وقد اجتمعوا بعد الطوفان، الذي أباد كل الناس ما عدا اقونا بشتم وزوجته، وراحوا عند تقديم الضحية الأولى "يأكلون بشهية غير اعتيادية مثل الذباب" وكانوا مثل رعاياهم يحبون الوجبات الجيدة من الطعام والمشروبات الروحية القوية.

ويشربون أكثر مما يتطلبه العطش، فيتمايلون سكارى وقد خصصت لراحتهم الأسرة والكراسي، وفي الليل كانت التماثيل تجرد من الملابس وتمدد على الأفرشة، وفي الصباح تغسل وتمشط، والمنازعات موجودة أيضاً بين الآلهة وكان الاله الأعلى يهتم بتسوية الأمر وإعادة الوفاق بين المتخاصمين، ولم يكن الحسد والغطرسة وغيرهما من الصفات البشرية غريبة عليهم، وكانوا يجهدون بعضهم أحياناً بالحروب الشطرنجية الصغيرة دون أن يكونوا دوما عارفي كل شيء.

انصبت واجبات الكهنة على إيجاد صورة موحدة من هذه التصورات المختلفة للآلهة، والتي شكلتها الميثولوجيا من مختلف العهود والأماكن.

وكان عالم الأبطال الأسطوريين وأنصاف الآلهة والعفاريت ولاسيما تموز وكلكامش والعباقرة السبعة يتمتعون بحب واحترام الناس، وكان الآلهة ينظرون من خلال توسط هؤلاء إلى مطاليب الناس وشكاواهم وقد انتشرت صورهم بين الناس في أشكال ومنحوتات طينية صغيرة تستعمل عند أداء مراسم العبادة، وكان الملوك يحترمون هذه التقاليد الشائعة بين السكان، وهكذا يعتقدون بأن قصورهم إنما تحرس بشكل خاص من قبل التماثيل والصور الجدارية التي تمثل الحيوانات الخرافية.

ارتبطت معونة الآلهة بتوجيهات وتعليمات ينبغي تنفيذها من قبل المعتقدين، وهذه التعليمات تتعلق بمختلف مناحي الحياة ولها سمات دينية وأخلاقية وقانونية، ومن تلك التعليمات مثلاً: "إن الناس لا يسمح لهم بالخطايا تجاه الآلهة. وعدم أكل ما هو مدنس للآلهة، عدم شرب الماء من آنية غير نظيفة، عدم الحلف أمام الآلهة بأيد غير مطهرة، عدم الجلوس على كرسي أمام إله الشمس، عدم الدخول في مقاطعة تابعة للآلهة، لا يسمح لرجل ملعون مسّ الآخرين" وبعض هذه التعليمات تتعلق بالصحة العامة ونظافة جسم الإنسان وقد حرم على الناس أكل أغذية معينة في أوقات معينة، والقسم الآخر يتعلق بالتعايش الجيد بين الناس وبين أفراد العائلة والجيران والعلاقة بالرؤساء والكهنة... وكانت هذه التعليمات تحرم الناس من: "قول الشر، النكث بالعهد، عقوق الوالدين، مخالفة الأخ الأكبر، دخول بيوت الآخرين، التقرب من امرأة أخرى، إراقة الدم، تفريق الصفوف، العمل ضد البئيس والتملق.. إلخ".

وبالنسبة إلى التعليمات الشرعية فقد كانت مطابقة للقوانين التي وضعها الملوك، وبذلك فإن العقاب لا ينزل من الآلهة فحسب، بل من البشر أيضاً.

وإذا استطاع الفرد تنفيذ كل هذه التعليمات فإنه يستطيع أن يضمن الرحمة من الآلهة، ولكنه إذا أساء تنفيذ وصية واحدة من تلك الوصايا يعرض نفسه لغضب الآلهة، حيث يعاقب بالأمراض وسوء العاقبة. إن تلك التعليمات إنما هي جزء من الواجبات التي كان على الناس تأديتها تجاه الآلهة. وكذلك كان العمل ضرورياً لخير الآلهة وتقديم القرابين بانتظام وأداء مراسم العبادة، وبما أن البشر قد خلق لخدمة وعبادة الآلهة، ولتحقيق رفاههم الحياتي، كما جاء في قصة الخليقة... لذلك كان عليهم أن يقدموا القرابين حسب تعليمات الكهنة. إن تقديم شاة مريضة أو رقيق غير نقي كفدية للآلهة كانا يجلبان غضب الآلهة على الناس. كان الكهنة يضمنون لأنفسهم بهذه التعليمات أحسن الأشياء ويضعون حداً لجلب الهدايا الزهيدة إلى المعبد. وكان يجب تقديم الضحية كاملة ولم يكن التصرف بها مرغوباً، وكان الكهنة هم الذين يقومون بالإجراءات اللازمة عند تقديم الضحية، فمثلاً عند إقامة الشعائر لمسحور (محضّر الأرواح الشريرة)، كانت التعليمات كما يلي: "رش الماء المقدس، تهيئة الهيكل، تقديم حمل كضحية، ووضع لحم الجهة اليمنى وقطع أخرى من اللحم مع كمية من التمر والطحين على الهيكل بالإضافة إلى كميات من عصيدة العسل والزبد، وضع آنية بخور وتقديم نبيذ السمسم. على الرجل أن يخرُّ ساجداً، تنظيف آنية البخور وعصا السدر ثم التكلم أمام شماش" وبعد ذلك يتمتم بالتمائم والأدعية.

على المرء عند القرابين قراءة بعض النصوص من الأدعية، حتى يجلب انتباه الاله المعبود. وكانت النصوص عادة مكتوبة وتكرر عدة مرات عند العبادة. وللصلوات أنواع مختلفة منها: المدائح، الأدعية، المناجاة، التكفير عن الذنب والرجاء والحلف، ومن أشكال العبادة: الركوع ومس الأرض بالجبهة وتقبيل أرجل الآلهة أو لثم أطراف ثوبه أو رفع اليدين وقوفاً ومناداة الإله.

كان العابدون يتخذون الكهنة كوسطاء، في حين أن الملوك والأمراء يستطيعون طلب الشفاعة من الآلهة الدنيا مباشرة، وقد صورت هذه المشاهد عادة في المنحوتات، حيث يشاهد الأمير العابد يقاد من يده من قبل آلهة صغيرة إلى الاله المنادى به، وكان الحكام يرجون الآلهة في عبادتهم لتحقيق أمانٍ تختلف عما يتمناه

المواطنون العاديون، إلا أن تمني كثرة النسل كان يجمع الكل وهكذا يتوجه نبوخذنصر في إحدى الأدعية إلى بنو:

"بنو، الإرث الشرعي، الوزير الأعلى، محبوب مردوخ المنتصر، انظر بابتهاج إلى أعمالي الحسنة وأهدني الحياة الخالدة والنسل الكافي والبقاء الدائم للعرش والحكم الطويل، وبسقوط الأعداء وفتح أرض الأعداء"

ومن المسائل التي تثير غضب الآلهة: نبذ الوصايا، تقديم ضحية غير كافية أو الإهمال في العبادة أو خطأ في الحياة اليومية، وكعقوبة كان الآلهة يرسلون له المرض، العوز، الفقر وسوء الحظ سواء بما يتعلق بصحته الشخصية أو عمله التجاري، وكان مخرجه للتخلص من سوء العاقبة هو الالتزام بالتعليمات الدينية وتقديم القرابين الإضافية والتماس الخلاص من الاله وكان المذنب يتوسل إلى الاله بأدعية خاصة يعترف فيها بذنوبه. ومن الصعوبة بمكان أن يغضب الإله طيلة سنوات دون أن يغفر للمذنب ذنوبه، وفي مثل هذه الحالات من المستحسن ذكر أسماء كافة الآلهة.

كان الكهنة يمارسون تأثيراً كبيراً على الناس، إذ إنهم يقفون بين الشعب والآلهة الأقوياء، وكانوا يعرفون أعقد الشعائر الدينية والتعاليم وبذلك يملكون مفاتيح الصفح عن الذنوب، إن قليلاً من الناس قد تجرأوا للدعاية ضد الكهنة ومطاليبهم. وقد جاء في "مناجاة عبقري" ما يلي:

"انتبه يا صديقي، تعلم مشورتي، وصن كلامي: إن امرأ ليرفع من شأن المرموقين الذين تعلموا القتل ويخفض مرتبة الضعفاء الذين لم يذنبوا، ويطارد الصادق الذي يبحث عن مشورة الإله. وتملأ حقائب اللصوص بالمعادن الثمينة. الأقوياء يسرقون الطعام من بيوت الضعفاء، ويعطي الحكم للمنتصر الذي يتظاهر بالتواضع ويباد الواهن ويصرع الضعفاء، وحتى أنا العاجز يطاردني بالغو الذروة"

إن خيبة الأمل المريرة هذه تجسد لنا بوضوح بأن الإيمان بالنظام "المنزل من قبل الآلهة" قد زعزع في مسيرة الألف الأول قبل الميلاد، وبالتأكيد إن ذلك الشك قد انتشر بين فئة قليلة من المتعلمين الذين ينتمي إليهم كاتب هذا النص الأدبي، وكعقوبة لمثل هذه المظاهر الكافرة، يمكن للآلهة كما يؤكد ذلك الكهنة - ليس فقط إنزال المرض وسوء الحظ، بل الموت أيضاً. ذلك الذي كان مرتبطاً بالرعب عند البابليين، إذ إنهم عكس المصريين القدماء لا يؤمنون بالحياة الخالدة السعيدة في العالم الآخر، بل يتصورون المسألة إقامة غير سعيدة في عالم الأموات، لقد كانت فلسفتهم تعبر عن التمتع بالحياة كما جاء في هذا المقطع من ملحمة كلكامش:

"فأجابت صاحبة الحانة جلجامش قائلة له :
إلى أين تسعى يا جلجامش
إن الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقت الآلهة البشر ، قدرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
أما أنت يا جلجامش فليكن كرشك مملوءاً على الدوام
وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء
وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك
وارقص والعب مساء نهار
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحم في الماء
ودلل الصغير الذي يمسك بيدك
وأفرح الزوجة التي بين أحضانك
وهذا هو نصيب البشرية"(*)

وحتى الذي كانت بطنه غير مملوءة يخشى الموت ويأمل الحياة الطويلة كالأغنياء. أجل، إن أحداً لم يكتب له أن يعيش إلى الأبد، فذات يوم لابد أن "تقطع الحياة كقصبة في مهب الريح" ويتمرغ الجسد الفاني في الطين، وينبغي على الروح إذ ذاك أن تطأ الطريق الشاقة في العالم الأسفل.

ولكي تضمن أرواح الراحلين الطمأنينة في العالم الأسفل، ينبغي إجراء طقوس دينية مختلفة.

وكانت النساء النادبات يقدمن إلى بيت الميت للقيام بالنحيب المطلوب، وكان النادبون يمزقون ملابسهم وينتفون شعرهم ولحاهم حتى إنهم كانوا يحدثون جروحاً في أجسامهم. وكان الكهنة يعزفون بالآلات الموسيقية الألحان الجنائزية ويتهيؤون لإجراء مراسم الدفن. وكان الموتى العاديون لا يتمتعون بمثل هذه المظاهر. كانت جثث الفقراء تلف بحصير من القصب وأما جثث الأغنياء فتوضع في توابيت من الفخار أو في

* - ينظر ص١١٥ من ملحمة جلجامش ، ترجمة الأستاذ طه باقر (الطبعة الثانية) .

قـبـور مـبـنـيـة بالطابوق، وكـانت الجـثث تدفن في أمـاكـن مـعـدة للمـوتى بين البـيـوت السـكـينة أو قـرب سـور المدينة، وكـانت بعض الحاجـيـات الشـخـصـيـة وكـذلك الأكل والشرب توضع إلى جانب الميت ثم يوارى بالتراب.

كان الملوك عادة يدفنون باحتفالات مهيبة ويسجون في توابيت كبيرة داخل أقبية بجدران حجرية، حيث السكون الأبدي. وبالإضافة إلى مراسم الدفن للفقراء والأغنياء يجري ذبح القرابين وتوزيع الشراب حتى يسبغ الآلهة الرحمة على الأرواح. ولكي لا تذهب كل هذه المراسم والقرابين عبثاً، فقد منع منعاً باتاً تعكير راحة الموتى، ولا يسمح لأحد بفتح القبور وأخذ ما موجود منها. وهذه الأمنية يحققها الملوك عند احتلالهم لمدينة ما، حيث كان أول ما يقدمون عليه هو فتح قبور الملوك والسطو على كنوزها، إذ كان ما يضاهي هذه الكنوز لا يمكن العثور عليه في مكان آخر، وإذا استطاع الجنود الحصول على ما يريدون فإن خطر عقاب الآلهة لا يرهبهم.

كانت روح الميت تتخذ طريقها، خلال إقامة مراسم الدفن، إلى العالم الأسفل الذي تقع بوابته في الصحراء قبالة غروب الشمس، وعليها قبل كل شيء عبور نهر العالم الأسفل، وكان يعمل هناك عبار مرعب "بأربع أياد وأربع أرجل وبرأس طائر الزوبعة" وهذا يسمى: "خذ بعيداً بسرعة" كان يأخذ الروح إلى مملكة الأموات، وعبر البوابات السبع إلى العالم الأسفل، كان الحراس يأخذون بالتدريج قطعاً من ملابس الميت، وبعد أخذ موافقة حاكم العالم الأسفل أريشكيكال، يسمح للروح بالدخول في "دار الظلام، بيت أركا للا" حيث لا رجعة إلى الأبد، وحيث الطعام يتكون من الطين والتراب والظلام يخيم على كل شيء. في مثل هذا العالم المظلم تتواجد الحياة الخالدة حسب اعتقاد البابليين. وكل من خلف ابناً باراً يقدم القرابين في أوقاتها المعينة، ويستطيع أن يتمتع بشرب الماء العذب. وكل من لا معين له على الأرض فكان يعيش على الفضلات والقاذورات ويشرب الماء الآسن. وكانت الروح تفقد أحياناً الصبر في العالم الأسفل فتبعث من جديد حتى تزعج الأحياء. ومثل هذه الأرواح تجلب الأمراض والسوء للناس. وينبغي إعادتها إلى العالم الأسفل بواسطة القرابين والعبادة ومن خلال السحر والشعوذة، والذين ألحقت بهم اللعنة يلتمسون العون من كافة الآلهة الطيبين: "أنتم يا أرواح موتى عائلتي، روح أبي، جدي، أمي، جدتي، أخي، أختي، عائلتي، عشيرتي، أقاربي. لقد قدمت لكم جميعاً، وأنتم ترقدون في الأرض، القرابين وصببت لكم الماء، رعيتكم وأثنيت عليكم، مجدتكم

عـاليـاً. واليـوم تسيـرون أمـام شـمـاش وكلكامش، ارفـعـوا شكواي. بتـوا الأحكام الحاسـمـة في أمـري: "وبعد أن يعدد أعـمـاله الحسنة ومـا قـدمه من القـرابين يواصل كـلامـه": "امسكوا بهـا وخذوها إلى أرض بلا عـودة! ولكني أنا، خادمكم أريد أن أشفى، وبسبب الدسائس أريد أن أكون نقيـاً من خلال أسـمـائكم! أريد أن أقدم الماء البارد لأجدادكم، أعطوني الحياة، أريد أن أثني عليكم"

وإذا نجحت هذه التعـاويذ في دفع المرض والشر من الإنسـان يمكنه آنذاك ان يقدم شكره إلى الآلهة في الأعيـاد الكبيـرة والمواكب، وكانت الأعيـاد من الأحداث المفرحة في حياة البابليين. وكانت المدينة تزخر بالناس والحركة التجارية والموسيقى والضجيج، وتتعاقب خلال العام الواحد عدة أعياد سواء لمناسبة الوفرة في المحصول أو لحدث معين في حياة الآلهة، ولذكرى الزواج الميثولوجي للآلهة أو المعارك المنتهية بالنصر كانت الأجيـال المتعـاقبة تحتفل لمئات السنين. وثمة أعياد غير دورية تعقد لمناسبة افتتاح معبد أو السير في المواكب إلى الجبال والينابيع. ولما كان الاعتقاد السائد بأن الآلهة إنما يحبون الالتقاء عند الأكلات اللذيذة والشراب الجيد فإن الناس يفعلون نفس الشيء في مثل هذه الاحتفالات "إن يوم تكريم الإله هو فرحة للقلب"

ومن أهم وأكبـر الأحداث عند البابليين عيـد رأس السنة الذي يتسم بأهميـة أساسـية لمجمل حياة الدولة. ولم يقتصر مغزى هذا العيد على الالتقاء السعيد لكافة الناس وحسب، بل إن الأحداث التي تجري هنا لها في رأي البابليين الأهمية الحاسمة لوجود الدولة، وإذا صادف أن الاحتفال لم يتم بهذا العيـد بسبب الحرب أو احتلال العدو للبلاد أو غياب الملك، فإن ذلك يعتبر كارثة قومية. إن احتفالات هذا العيد تجري في كافة أنحاء البلاد، إلا أن أهم الاحتفالات تجري في مدينة بابل بالذات.

تبدأ احتفالات رأس السنة في مارت وتبلغ القمة في الفترة من ١ إلى ١١ نيسان أي في وقت تكون فيه الطبيعة في ذروة جمالها وحيث الحياة الجديدة تدب في كل شيء بعد أن يزول برد الشتاء القارس. وكـان مركز الاحتفالات هو معبد مرودخ ايزاتجيلا والبرج المدرج اتيميناتكي. وفي كل عام تجري هنا المراسم الدينية المستمرة التي ترجع أصولها إلى العهد السومري، وكان تمثال مرودخ هو الذي يمثل مركز الصدارة في هذه الاحتفالات، وكان ينبغي أن يرتدي في هذه المناسبة أروع الملابس ويظهر في أحسن مظهر، وبعد بدء العيد كان رئيس الكهنة يتلو في اليوم الثاني صلاة طويلة وحده أمام الإله وبعد ذلك يسمح لبقية الكهنة الدخول، وفي ٣

نيسان كانت نفس المراسم الدينية تعاد مع تمثالين خشبيين مصنوعين من قبل عدد من الحرفيين ومغطيين بالملابس الحمراء والذهب والأحجار الكريمة، وفي ٤ نيسان ترفع الصلوات لمردوخ وزوجته ساريانيتوم. وكان رئيس الكهنة يراقب النجوم ثم يقوم بتلاوة بعض التعاويذ. وفي المساء تحكى أمام تمثال مردوخ ملحمة تكوين الخليقة وربما تقدم بعض الحركات التمثيلية. وبعد الصلوات والقرابين الاعتيادية في اليوم الخامس كان الكهنة المعوذون ينظفون المعبد. وكان أحد الطباخين يذبح شاة يقوم أحد الكهنة بمسح جدران المعبد بدمها وبهذه العملية تنقل الذنوب إلى الشاة التي ترمى في النهر "ككبش الذنوب" وكان الطباخ والكاهن المعوذ يطهران نفسيهما دينياً عند القيام بهذه المراسم وعليهما بعد ذلك ترك المعبد والذهاب إلى السهول إلى أن تنتهي الاحتفالات، وكان المصلى المعد لنبوفي معبد ايزانجيلا يزوق "بسماء ذهبية" ثم ينتظر قدوم الإله من معبده في بورسبا.

كان الملك يلعب في الاحتفالات الدينية اللاحقة دوراً مهماً حيث يدور في أرجاء المعبد ويلقي كافة شارات حكمه أمام الإله، ثم يقدم تقريراً عن أعماله في السنة المنصرمة، ويعترف بذنوبه وعليه أن يعلن براءته عن وقوع بعض الأحداث التعسة والمصائب، وبعد ذلك يتلقى الملك صفعة على وجهه من رئيس الكهنة مع جر الأذنين منبهاً إياه بتأدية كل الواجبات الدينية على أكمل وجه. وبعد ذلك يسمح له بحمل شاراته الملكية. وفي المساء كان الملك ورئيس الكهنة يضحيان معاً بثور أبيض. وفي اليوم السادس يتم استقبال الإله نبو القادم من بورسبا في شارع الموكب. وكانت الدمى المزوقة المعدة للاستقبال تحرق بعد إجراء بعض المراسم الدينية معها. وأما الأيام اللاحقة الأخرى من أعياد رأس السنة فغير واضحة مع الأسف وذلك بسبب تلف النصوص في الرقم الطينية، على أن من أهم الأحداث التي تجري في أعياد رأس السنة هي تقرير مصير السنة الجديدة حيث تجري المراسم أمام تمثال مردوخ وبوجود الكاتب نبو وبقية الآلهة وفي غرفة خاصة. إن حصة المواطنين في المشاركة بالاحتفالات تختلف بهذا القدر أو ذاك ففي بعض المراسم كانت المشاركة ممنوعة نهائياً. وأما العيد الحقيقي للشعب فيبدأ في اليوم العاشر، حيث يلمس الملك يد الإله مردوخ ويرجوه النهوض. وبهذا المشهد يتم الإقرار بشرعية الملك في حكمه. والآن ينطلق مردوخ مع حاشيته، وكان تمثاله يوضع في سفينة (ماكوا)، ويحتمل أنه يترك المدينة متوجهاً إلى الشمال. وهناك، خارج أسوار بابل يتواجد (بيت أكيتو) أي

"دار عيد رأس السنة" حيث تقام مراسم دينية أخرى. وربما تقدم هناك استعراضات درامية لبعض الأساطير. وكان مرودخ يلعب فيها دور الرئيس.

ويفهم من مضامين هذه الاستعراضات أنه يتم تهريب الإله إلى الجبال مع مجرم يقتل فيما بعد. وهناك يحقق مع مرودخ ويضرب في حين يحدث غيابه في المدينة قلقاً عاماً، ونتيجة بعده عن المدينة كانت الشمس والنور يتلاشيان عن البلاد. ويمكن أن يعود بعودته فقط. وأما زوجة مردوخ فتذهب للبحث عن زوجها وفي النهاية ترجع معه.

كانت المواكب المحملة بتماثيل الآلهة تعود إلى بابل عبر الطرق البرية ولهذا الغرض أمر نبوخذ نصر ببناء شارع الموكب العظيم الذي يمتد بين دار العيد إلى باب عشتار، وفي إحدى الصلوات يقول: "نبو ومردوخ إذا مررتما بموكبكما من هذا الشارع، فليكن ذكري طيباً على لسانيكما: وفي الوقت الذي أسير أمامكما بصحة جيدة وقلب مبتهج فليكن عمري طويلاً وأبقى إلى الأبد.." وكانت عربات المواكب الكبيرة المزوقة تحمل التماثيل وتسير عبر الشارع ذي الـ ٢٠٠م طولاً والذي زخرف جانباه على أرضية زرقاء بأسود ضخمة وحيوانات مقدسة للآلهة عشتار، وكان عرض الشارع ١٦م غطي في منتصفه ببلاطات من حجر الكلس وأما الحواشي من الجانبين فببلاطات من أحجار عرقت بالأبيض والأحمر وكانت العربات تسير بهدوء تتبعها مجموعة كبيرة بالموسيقى والرقص وتعلو الهتافات والتهاليل في كل مكان. وكان الموكب يتجه من بوابة عشتار على طول الأسوار العالية للقصر حتى منطقة معبد مرودخ.

ومن الأحداث الهامة التي تجري خلال أعياد رأس السنة، الزواج المقدس بين مرودخ وزوجته ساريانيتوم ويحتمل أن ذلك يعرض من قبل الملك ورئيسة الكهنة حتى يتم ضمان الخصوبة والثروة في البلاد في السنة الجديدة، وترجع أصول هذا التقليد إلى العهد السومري أيضاً. وفي أعياد رأس السنة ينبغي أن تزول الفوارق الاجتماعية، وكان المالكون يخدمون عبيدهم ويجلس في مكان الملك رجل آخر عليه أن يكفر عن ذنوب الملك وأخطائه خلال العام المنصرم من حكمه. ومع عودة الآلهة إلى معابدهم وسفر نبو إلى بورسبا كان العيد العظيم يبلغ نهايته.

يقيناً، كانت هذه الأعياد تشكل للكهنة سوقاً رابحة إذ إن المعتقدين الوافدين من جميع أرجاء البلاد يبحثون عن أماكن الإقامة بالقرب من المعبد، ويرغبون أيضاً

في مختلف أنواع الشراء، تعويضاً عما لم يتسن لهم تحقيقه طيلة أيام السنة. وهكذا تزدهر تجارة الكهنة بالتماثيل المقدسة ورموز العيد كالموائد والأسرة والكراسي وعربة مردوخ التي صنعت كلها من الطين، وبمقدور كل واحد أن يجلب معه هذه الهدايا الصغيرة إلى البيت كتذكار لهذا العيد العظيم. أما التجار فيعرضون بضائعهم أيضاً حول المعبد جاذبين الناس للشراء. ويحتمل أنه كانت ثمة نساء للمتعة، يقدمن أنفسهن للرجال، تكريماً للآلهة عشتار، وهكذا لم يكن لهذا العيد أهمية رسمية للملك والكهنة وحسب، بل يشارك فيه كافة أبناء الشعب.

عالم الروح عند البابليين

كان العالم بالنسبة للبابليين مملوءاً بالأرواح والعفاريت والجن والملائكة.

هؤلاء ينقسمون إلى قسمين: الأول طيب يدعو إلى الخير والثاني هو الغالب قوي شرير ينشر الخوف والفزع والأوبئة وسوء الحظ. وبعض العفاريت الشريرة فيما مضى آلهة صغار من أبناء وبنات الإله الأعلى آنو، وآخرون صعدوا من العالم الأسفل كأرواح وموتى تهيم على الأرض. ومن أخطر العفاريت ما عرف باسم (الأشرار السبعة) ولم يكن هؤلاء مجرد أرواح لمختلف أنواع الرعب بل لكل واحد منهم واجب معين. وكان (الشرير أوتوكو) يستهدف قفا الإنسان، وآخر الرأس، وثالث يتسلل إلى البيوت ويسرق النوم من عيون الناس، وقد جاء حولهم في إحدى النصوص مايلي:

"إنهم سبعة، إنهم سبعة أكرر مرتين هم سبعة. ولدوا في جبال الغرب,ونشأوا في جبال الشرق. إنهم يسكنون في شقوق الأرض ويظهرون في الصحارى. ويحسّ بهم في السماء والأرض. ولكنهم غير معروفين بين الآلهة الحكماء وأسماؤهم غير موجودة في السماء وعلى الأرض" ومن العفاريت المرعبة أيضاً لاماشتو التي كانت تنشر مرض حمى النفاس بين الأمهات والمولودين الجدد وغيرها من الأمراض. ويعتقد بأن عفريت العاصفة بازوزو كان يجلب معه صداع الرأس الشديد.

ولم تقتصر أعمال الشر على العفاريت فحسب، بل ثمة أناس يملكون قوى خفية يسحرون بها الآخرين. وكانت (نظرة شريرة) منهم تكفي لأن تصيب الآخرين بالشر

وتجلب لهم المرض وتصيب كافة أفراد العائلة والمواشي بالفزع. وكان (البصاق الشرير) لهؤلاء يمكن أن يجلب أيضاً أسوأ العواقب. ويرينا هذا النص مدى الاضطراب الذي كانوا يعانونه من السحر (إن الساحرة التي تسير في الشوارع، تدخل البيوت، تمشي في الأزقة، تطارد في الساحات، تتوجه إلى أمام ووراء، تقف في الساحة وتسد الطريق بقدمها، تسرق القوة من الرجل الجميل والخصوبة من الفتاة الجميلة، وبنظرتها تسرق الفتنة من جسديهما.. لقد رأتني الساحرة، وجرت ورائي وبسمّها سدت الطريق وبسحرها أعاقت حركتي وجردت جسدي من الهي والهتني) وإذا أراد أحدهم أن يصيب عدوه بالسوء عليه أن يقوم بعملية سحرية وذلك بعمل تمثال من الطين للرجل أو أخذ شعره أو حاجة من ممتلكاته وبذلك يلحق به سوء الحظ والمصائب والنكبات.

مثل هذه الدسائس بالطبع ممنوعة منعاً باتاً، إذ إنها كانت تسيء إلى العلاقات بين الناس. يقيناً أن الناس يتهمون بعضهم بالسحر عند إصابتهم بسوء الحظ أو الاضطراب العائلي. وانطلاقاً من هذا المبدأ حدد حمورابي في مجموعة قوانينه بعض العقوبات لأعمال السحر.

ويمكننا تصور الفزع الذي يعانيه البابلي بشكل دائم خلال اعتقاده بهذه القصص والحكايات حول الأرواح الشريرة، إذ لم يسلم في مجال من مجالات الحياة من تأثير هذه الأرواح. وكانت إمكانية المساعدة الوحيدة تكمن في الالتجاء إلى أحد الكهنة السحرة حتى يتم إضعاف أو طرد العفاريت والأرواح الشريرة. ولذلك فإن كل معبد كان يملك عدداً كبيراً من هؤلاء الكهنة الذين لا يمكن الاستغناء عنهم. ويمكن فقط بتوسطهم الالتجاء إلى الآلهة الكبار لإزالة كل شر. وكان الاله الحكيم ايا يعتبر أحسن مساعد، إذ إن كل شيء على الأرض وفي المياه كان معروفاً لديه وقد أحاط ابنه مردوخ بأسرار فن السحر، وهكذا استطاع أن يحتل مكانة ولاسيما في بابل. وبالرغم من ذلك فإن مردوخ يرجع دوماً إلى استشارة والده الذي كان يردّه بما يلي: "يا بنيّ ما الذي تعرفه؟ ما الذي يمكنني أن أعلمك إياه؟" ومن ثم كان يعطيه التعليمات المضبوطة التي ينقلها مردوخ بدوره فيما بعد إلى الذين يطلبون معونته، حيث يتم اللجوء إلى السحر وإبطال التعويذة بالماء أو النار. ويمكن الاستنجاد بإله النار كيرا أو نوسكو الذي يحرق العفاريت الشريرة. وكان إله الشمس أيضاً مساعداً كبيراً لكافة المرضى والمسحورين.

كان البابليون يصورون الأرواح الشريرة في هيئة أنصاف حيوانات وبوجوه قبيحة. وكانت صورة العفريت تستعمل كوقاية ناجعة وتستعمل لأغراض السحر وتحمل كتميمة. وكانت عفريتة الحمى لاماشتو تصور كامرأة عجوز بنهدين متهدلين وقوائم طير جارح ورأس أسد قبيح. وكانت تصور عادة وهي واقفة أو تركب حماراً وهي مقوسة الظهر. يرضع من ثديها خنزير وكلب وهما الحيوانان القذران بالنسبة إلى البابليين. وتحمل في يدها مشطاً أو مغزلاً كرمزين للمرأة. وهذه العفريتة تصور على قلائد تحملها النساء وتصنع تماثيل صغيرة تصور لاماشتو تستعمل لأغراض السحر. وكان لعفريت الزوابع بازوزو منظر مفزع وهو يشبه تقريباً جسم الإنسان برجلين تشبهان قوائم الجوارح وبرأس شبيه برأس الأسد وبعينين ضخمتين وقرون كبيرة. ويحمل على ظهره جناحين ممتدين كرمز للعاصفة.

إن وظيفة كهنة السحر هي تحرير الناس من الأرواح الشريرة وإعادة العافية إليهم وذلك من خلال هذه الصور التي تمثل العفاريت مع وسائل أخرى مساعدة. والكاهن يحتاج في هذا المجال إلى معرفة تامة حتى يتمكن من اختيار التعاويذ الصحيحة والضرورية لهذا الغرض.

وثمة عدد لا يحصى من النصوص التي يعود قسم منها إلى العهود السومرية والقسم الآخر ظهر في مسيرة الألف الثاني ق. م.

وتلك النصوص تحفظ في المعابد ولاسيما في المعبد الرئيسي لمردوخ. وتستعمل عادة فهارس لتصنيف هذه التعاويذ حيث يعتمد الكهنة عليها في اختيار ما يلائم الأمراض المختلفة وهذه النصوص ترتب حسب السطور الأولى أو حسب الأغراض التي تستعمل من أجلها. وكان الكاهن يطلب من الشخص المصاب القيام بمراسم معينة في حين يقرأ هو التعاويذ المطلوبة وبعد ذلك يلقي الكاهن بشكل الساحر والساحرة في النار مع مواصلة قراءة التعاويذ ورش الماء وتطهير المكان الذي تجري فيه عملية السحر. وكانت النماذج المصنوعة تحرق كبديل للأعداء الحقيقيين من الأرواح الشريرة.

وإذا لم تؤد عملية السحر إلى نتيجة إيجابية يجري البحث عن أسباب أخرى. فإما أن العملية ناقصة أو ثمة إهمال أو أسباب شريرة أخرى في موضع ما. وإذا بقي العليل مستمراً في مرضه ينبغي هذه المرة طرد عفاريت المرض بالسحر وكان المرء يحتاج لذلك إلى تعاويذ معقدة، الأمر الذي يكلف المريض مبالغ طائلة. وكانت التعليمات تتطلب ذكر أسماء كافة العفاريت الشريرة التي تسبب المرض.

وهكذا كانت طرق وأساليب السحر تختلف باختلاف الأمراض وشدتها وهي ترافق البابلي في حياته اليومية سواء أكان فقيراً أم ثرياً، شيخاً أم شاباً. وكان دوماً على حذر من الوقوع في أيدي الأرواح الشريرة.

ونتيجة التصاق السحر بالحياة اليومية وضرورته لتخليص الناس من الشرور فقط أصبح هذا الفن بمرور الزمن علماً قائماً بذاته. وبإمكان الإنسان العادي ولاسيما العجائز من النساء ممارسة هذا الفن، إلا أن التوغل في أعماقه والسيطرة على أسراره يتطلبان دراسة منظمة في إحدى المدارس الخاصة بهذا الغرض. وكان الوضع الاقتصادي المتردي للحرفيين والتجار والفلاحين والعمال لا يسمح لهم بإرسال أطفالهم إلى هذه المدرسة التي تحتاج إلى تكاليف باهظة، هذا إلى جانب حاجتهم إلى أبنائهم في ممارسة أعمالهم اليومية. كان الأولاد محظوظين إذ تمكنوا من تعلم مهنة الأب. ولذلك فإن حق التمتع بالدراسة مقتصر على أولاد الأغنياء أمثال التجار والكبار والاقطاعيين والكهنة والأمراء وبقي هذا الامتياز مقتصراً على تلك الفئات لمئات السنين.

إن المدرسة التي كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعبد في العصور السومرية الأولى بدأت تستقل شيئاً فشيئاً في مسيرة الألف الثالث ق. م، وفي عهد حمورابي اتخذت اتجاهاً خاصاً بحيث بدأت تمارس نشاطها بموافقة وامتياز خاصين من الدولة. وكان يسمح أن يكون في كل مدينة كبيرة "بيت للألواح الطينية" على الأقل وقد احتوت مدن كبابل على عدة بيوت تدار من قبل كتاب مختصين في فرع واحد أو عدة فروع. وكان مدير المدرسة يسمى "رب بيت الألواح الطينية" وهو المسؤول عن التدريس والإدارة. ويحتمل أن المدارس تقع في بيوت كبيرة خاصة وربما في القصر والمعبد لتخريج موظفين كفوئين لإدارة الأعمال. وكانت صفوف الدراسة بسيطة قليلة الأثاث. وكان النظام صارماً بحيث إن المعلم لا يستغني عن استعمال العصا في تأديب تلاميذه. ولما كانت المدارس خاصة فإن آباء التلاميذ يدفعون بالإضافة إلى أجور الدراسة النقدية، هدايا ثمينة إلى هيئة التدريس. ويحتمل أن بعض التلاميذ الأذكياء يدرسون على حساب الملك أو المعبد. وبالرغم من أن إمكانات الدراسة أمام البنات ضعيفة جداً، فإن هذا لا يعني بأن البنات لا ينلن حصتهن من الدراسة. لقد كانت هناك مدارس خاصة للبنات مهمتها تعليم القراءة والكتابة.

لقد تطورت الكتابة السومرية في الألف الثالث إلى أن تكاملت وتركزت. وفي

بداية الألف الثاني تحولت من حوالي ٢٠ علامة إلى ٥٠٠ علامة. وراحت الكتابة في العهد الآشوري - البابلي الحديث تستعمل فقط حوالي ٣٥٠ إلى ٤٠٠ علامة مسمارية والكتابة المسمارية ككتابة مقطعية أعطت الإمكانات ليس للتعبير عن اللغات السامية فحسب، بل لكافة اللغات الأخرى في ذلك الزمن.

وأخذت العلامات التي تتميز بالتعقيد في عهد حمورابي تتبسط مع مرور الزمن إلى أن أصبحت الكتابة المسمارية في عهد نبوخذنصر تختلف اختلافاً كلياً عما كان عليه في عهد حمورابي.

كان تعلم الكتابة المسمارية المعقدة يتحقق بالمران المستمر والتكرار وبالرغم من أن اللغة السومرية أصبحت بمرور الزمن لغة ميتة، فإنها بقيت محفوظة لدى بعض المختصين للأغراض الدينية والعبادة وتدرس في المدارس كلغة ثانية أو لغة تراث. وأما العلوم المختلفة والاختصاصات فكانت لا تدرس في المدارس الاعتيادية، بل مراكز خاصة يمكن اعتبارها "معاهد أكاديمية" تقدم للطلاب مبادئ العلوم المختلفة. وهذه المعاهد تقع في مدن كبيرة مثل أورونفر وبابل. وكانت المعاهد الخاضعة للمعبد تدرس طلابها علوم اللاهوت والفلك والتنجيم والسحر. وأما المعاهد المستقلة أو الخاضعة للقصر فكانت تدرس علوم أخرى مثل الرياضيات والجيولوجيا والطب. وكانت الفيلولوجيا "علم اللغة" تدرس كأساس لكل العلوم الآنفة الذكر، حيث يجري تحليل اللغة السومرية القديمة وبحثها وهذا ينطبق مع نظرتهم إلى الكون. وقد سهل هذا التحليل عمل الأخلاف الساميين، حيث تمكنوا من معرفة قواعد اللغة السومرية. وكانت الفهارس التي تركوها تحتوي على مجاميع الأشياء حسب فصائلها مثل أسماء الآلهة والبلدان والمدن والأنهار مع مختلف أنواع الحيوانات والنباتات والأحجار والمنتوجات التي تنتج عنها.

لم يعط هذا التركيب مفهوماً واضحاً عن قواعد اللغة السومرية، ولذلك بدأ في العهد البابلي القديم ترتيب قوائم تحتوي على اصطلاحات سومرية وأكدية، تستعمل بصورة مستمرة، منها ما يتعلق بالقانون والاقتصاد وفي منتصف الألف الثاني كان علم الفهارس أو القوائم يدرس في المعاهد ويجري تطويره. وفي المعهد الكاشي جرى تطوير هذه الفهارس بأن أضيفت إليها كلمات كاشية مع ترجمة الكلمات البابلية وتوضيحها وبالعكس.

إن الفيلولوجيا لا تعني بالنسبة للبابليين مجرد معرفة علمية لجوهر اللغة، بل أداة عملية مساعدة للتعلم والتعليم.

وبالنسبة إلى التاريخ، فإن السومريين كانوا يدونون تاريخهم في قوائم يعددون فيها أسماء ومآثر الملوك والأمراء والمدن، الذين عاشوا قبل وبعد الطوفان. وكانت بعض الحقائق التاريخية تتلاشى في ضباب الميثولوجيا والأساطير. وقد عاش السومريون ثلاث إلى خمس مراحل حكم. معظم التدوينات تذكر الحروب والانتصارات وبطولات بعض الملوك أمثال سرجون ونارامسين. وكانت الحقائق والأساطير تتداخل مع بعضها. واستمر البابليون على هذا المنوال مع التأكيد على الأعمال التي قاموا بها في عهود السلم كبناء المعابد والأسوار والقصور.

كانت الجغرافيا لا تتعدى كونها علماً مساعداً غير قائم بذاته. وكانت بعض مبادئها الأولية تدرس في المدارس، حيث تؤكد وتنظّر الصورة الدينية للعالم، والتي يتصورها السومريون والبابليون. كانت الأرض انعكاساً للسماء، كما جاء في علم اللاهوت. وكان على الجغرافيا أن تبرهن ذلك. كانت الأرض بالنسبة للبابليين أشبه بقرص دائري يحيطه النهر المر مع ثماني جزر غير كريمة. وكانت بابل تقع على مركز الأرض. وبالإضافة إلى هذا كانوا يملكون خرائط غير عملية للمدن والأنهار والجبال وهذه الخرائط بالدرجة الأولى لاهوتية تصور نظرتهم إلى العالم والكون.

أما علوم الحيوان والنبات والمعادن فتدخل ضمن العلوم الطبيعية التي لا تتضمن مجاميع كبيرة من القوائم. وكان المتعلمون يعرفون أسماء مختلف الحيوانات والنباتات والأحجار. وكان البابليون يعرفون الأجهزة الداخلية لجسم الحيوان بشكل دقيق، رغم جهلهم وظائف هذه الأجهزة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى علم النبات أيضاً ولكنهم كانوا على علم بالأنواع المفيدة ضد الأمراض والسحر. وعن الأحجار يعرفون الأنواع التي يمكن الاستفادة منها لأغراض مختلفة.

كانت الكيمياء معروفة بدرجة ضعيفة وكانوا يملكون وصفات جاهزة لصنع أنواع العطور والروائح ودهان التجميل والزجاج والأحجار الكريمة الاصطناعية والمعجون وأصباغ الصهر وخلط المعادن.. وقد أعطتهم تجارب مئات السنين والأجيال خبرات كافية في تلك الحقول.

وأما الطب فكان أكثر العلوم التصاقاً بالسحر والطبيب والساحر يلتقيان دوماً عند فراش المريض هذا إذا لم تجتمع المهنتان في شخص واحد. كان الأطباء قلة. وكان يعيش في القصر الملكي نطاسي بارع يستدعى من خارج البلاد. وكان الأطباء يستمدون علمهم من إله الحكمة أيا وآلهة الشفاء كولا التي تستطيع حتى إحياء

الموتى. وكانت الحيتان الملتفتان اللتان مازالتا رمزاً للطب حتى يومنا هذا ترمزان إلى إله الشفاء نينكيشريدا عند السومريين. وأما عن أسباب الأمراض فكانت معلوماتهم قليلة.

كانت معلوماتهم حول الأجهزة الداخلية في الجسم مختلفة. ونتيجة القرابين الكثيرة فقد اطلعوا على أعضاء الحيوان الداخلية مثل القلب والكبد والمرارة والكلى وراحوا يقارنونها مع الأعضاء الداخلية للإنسان. ولما كان الأطباء لا يقومون بتشريح الجثث مطلقاً، لذلك تنقصهم معرفة الصورة المتكاملة لأجهزة الإنسان الداخلية. كانت الأسباب الحقيقية للأمراض غير معروفة عندهم ولذلك يرجعونها إلى قوى ما وراء الطبيعة ويبحثون عن العلاج في عالم السحر والميثولوجيا ويملكون كميات كبيرة من الوصفات الجاهزة ضد مختلف الأمراض سواء من النباتات المختلفة التي تجفف وتسحق وتطبخ أو من أجزاء الحيوان. وكان الأطباء يستعملون بعض الأدوات الطبية مثل الأنابيب المعدنية والمصات، تدفع بواسطتها الأدوية إلى داخل الجسم. وللمرض الواحد أكثر من سبعين وصفة وبالتأكيد فإن الأطباء يقومون ببعض العمليات الجراحية كجراحة العيون والكسور وكانت قوانين حمورابي تضع عقوبات صارمة على الجراحين الذي لا يوفقون في معالجة مرضاهم، منها عقوبة الموت.

كانت الرياضيات فرعاً للمعرفة، قطع فيها السومريون أشواطاً ملحوظة ثم طورها الساميون أكثر. وكانت الرياضيات تطبق في الحياة اليومية، الأمر الذي أدى إلى تطورها تطوراً ملحوظاً نتيجة القياس المستمر للأراضي والقنوات وتعداد كمية الانتاج والديون والفائض.. الخ. وكانت الحسابات تجري بطريقتين:

الطريقة الستينية التي مازالت تستعمل حتى يومنا هذا في قياس الزمن والطريقة العشرية. وكانت عمليات الجمع والطرح والضرب والتقسيم وجذور المكعب الخ. كلها معروفة عند السومريين. وبرع البابليون بشكل خاص في قياس المساحات الواسعة والمباني وكانت نظرية فيثاغورث معروفة لديهم.

كان البابليون يراقبون السماء باهتمام بالغ وكانت علوم الفلك والتنجيم تدرس في المعابد من قبل الكهنة. ويحتمل أنه كانت ثمة أبراج خاصة على المعابد لمراقبة النجوم في سماء الجنوب الصافية. وقد أعطى السومريون أسماء مختلفة للنجوم وعرفوا مواضعها وأماكن تنقلها. وقد قطع علم الفلك والتنجيم في عهد البابليين وبالارتباط مع الرياضيات شوطاً بعيداً في التقدم، حتى إنهم بدؤوا يعرفون في عهد نبوخذ نصر مراحل الكسوف والخسوف وسير حركة النجوم.

ونتيجة لمعرفة أسماء النجوم ومواضعها راحوا يهتدون بها عند السير في الليالي. وبواسطة علم الفلك توصلوا إلى معرفة حقيقة أن السنة تحتوي على إثني عشر شهراً.

إن العلوم التي تقدم ذكرها لا تدخل كلها ضمن المواد المقررة في المدرسة البابلية. كانت المواد المقررة هي المبادئ العامة للقراءة والكتابة والرياضيات والهندسة وربما أيضاً علم الفلك. وفي الدراسة العالية يمكن للطالب أن يختص في الفرع الذي يريد وينبغي عليه أن يبحث عن معلم معروف يعمق معلوماته في الفلك والرياضيات والطب. وللحصول على مهنة الكاتب عليه أن يكون بارعاً في الكتابة واللغة وذا علم باللغة السومرية. وكان الكاتب يعمل عادة عند التجار الكبار والكهنة ودوائر الدولة. وكل كاتب يطمح للعمل في القصر الملكي.

كان كتاب الألواح الطينية بارعين جداً في عملهم، يستعملون الطين بدقة متناهية سواء أكان ذلك لوحة لا يقل طولها عن نصف المتر أم كانت بحجم طابع البريد. كانت المهمة عادة تتوارث عبر الأجيال. وهؤلاء يختلفون عن أولئك الذين يتخذون أماكنهم في الساحات والشوارع لكتابة العقود والرسائل البسيطة، إذ بإمكانهم تذييل النص الذي يكتبونه بأسمائهم وهم معروفون في طول البلاد وعرضها بخلاف الحرفيين والفنانين المغمورين الآخرين. وكانت المعابد تفتخر لوجود الألواح الطينية لما لها من أهمية دينية. وإذا كانت تعوزها تلك المجاميع فتستعيرها من معابد أخرى ليقوم هؤلاء الكتاب باستنساخها. وكانت مجاميع الرقم الطينية لا تحتوي على المثولوجيا والنصوص الأدبية وحسب، بل الشؤون الاقتصادية ومختلف أنواع الوثائق. وكان القصر الملكي يحتوي على آلاف الألواح الطينية المتعلقة بمعاملات الإدارة وتنظيم شؤون البلاد والأموال الواردة والصادرة وأنواع الضرائب. وثمة أرشيف خاص للوثائق السياسية المهمة كالمعاهدات وواجبات رسل الملك في البلدان الأخرى وكان بعض الملوك ومنهم نبوخذ نصر يهتمون بماضي بلادهم وتاريخهم فيجمعون كافة الألواح المتعلقة بذلك. ومن الملوك الآشوريين آشور بانيبال الذي له مكتبة ضخمة تحتوي على مجاميع هائلة من النصوص الأدبية والدينية وقد احتوت مكتبته على مالا يقل عن ٢٥٠٠٠ لوحة طينية مرتبة بانتظام. ولاشك أن عدداً ضخماً من الكتّاب والعاملين كانوا يعملون في هذه المكتبة الواسعة.

وكان الأدب في بلاد الرافدين قد بلغ شأناً كبيراً وكان يصور بأسلوب بارع

نظرة الشعوب التي سكنت على ضفاف نهري دجلة والفرات، إلى الكون والمجتمع. وترجع أصول معظم الميثولوجيا والملاحم إلى العهود السومرية التي تنقل في البداية شفوياً عبر الأجيال والقرون. وفي نهاية الألف الثالث، في العهد البابلي القديم راح الكهنة والكتّاب يستنسخون هذه الأساطير على الألواح الطينية. وبقيت المواضيع السومرية معاصرة حتى العصور المتأخرة، رغم التعديلات الكثيرة التي جرت في الشكل وذلك لكونها تبحث مشاكل الإنسانية كالميلاد والموت والحب والصراع والخلق وما وراء الطبيعة. ولما كانت صورة الإله مشابهة لصورة الإنسان فإن للآلهة نفس المشاكل التي يعانيها البشر. وظهرت في العهد البابلي ميثولوجيا راقية أيضاً، ربما كانت نواتها سومرية. ومن الصعوبة بمكان تحديد معالم الأدبين السومري والبابلي ووضع الحدود بينهما، إذ أنهما قد تداخلا وأكملا بعضهما إلى حد بعيد. ومن القصص المبدعة التي تحدت الزمن تلك التي تبحث نشوء الأرض والسماء والبشر. وكان الإله الحكيم أنكي (عند السومريين) وأيا (عند البابليين) قد لعب دوراً كبيراً في ذلك. وفي بداية الألف الثاني أبدع البابليون نشيد خلق العالم الذي سمي بمطلعه الذي يبدأ (إينوما إيليش). ويتناول موضوعة الآلهة القدماء الذين مازالوا يتكونون من عنصر المادة الرطبة التي تتابعت منها الأجيال فيما بعد، ومنها بعث الإله أنو الذي أصبح أباً للأجيال اللاحقة.

وبقيت مأثرة إنشاد قصة الخليقة طيلة عهود الدولة البابلية، تنتمي إلى أهم تشريفات أعياد رأس السنة. وينبغي أن يتذكر الناس دوماً من خلال ذلك بأن مردوخ هو خلق وأنقذ العالم وكان ظهور هذه الميثولوجيا في فترة ازدهار الدولة البابلية قد لعب دوراً سياسياً كبيراً، إذ لم يرفع أهمية بابل وحسب، بل من مردوخ نفسه الذي تجاوز الآلهة القدماء. وقد لاقى هذا النشيد صدى واسعاً، حيث كان يتلى في معابد آشور. ويقوم الإله آشور مقام مردوخ.

وفي الوقت الذي كانت الفترة الأساسية لقصة الخليقة تتناول مسألة خلق العالم والبشر، كان العمل العظيم الثاني للبابليين "ملحمة كلكامش" يتناول مشاكل وتطلع الإنسان إلى الخلود، إن كلكامش الباحث الأزلي عن الحقيقة يحاول هنا البحث عن سر الخلود، حلم البشرية. وتعتبر ملحمة كلكامش من أهم الأعمال الأدبية التي ظهرت في وادي الرافدين واشتهرت في كافة أنحاء العالم القديم والحديث بترجمتها إلى معظم لغات العالم ويمكن اعتبار كلكامش شخصية تاريخية حكم في النصف

الأول من الألف الثالثة مدينة أوروك كملك وتلعب مدينته هذه دوراً كبيراً في الملحمة. كانت ملحمة كلكامش تتكون في البداية من أساطير شفهية متفرقة. وفي نهاية الألف الثالث أو بالأحرى نهاية آخر عصر النهضة السومرية تم جمع كافة الأشعار والأساطير السومرية ومن ضمنها ملحمة كلكامش. ومع ذلك لم تأخذ الملحمة شكلها النهائي. ويحتمل أن أحد الشعراء العباقرة قد استطاع أن يعيد صياغة الملحمة من جديد في نهاية الألف الثاني بحيث أصبحت كما هي عليه الآن ذات محتوى وشكل موحدين.

وككل الأبطال العظام جرت أحداث غير اعتيادية عند ميلاد كلكامش. كان جده يخشى على تاجه نتيجة تنبؤ، فألقى بحفيده من على برج، إلا أن صقراً قد لقفه وأخذه إلى بستاني ليربيه، ولكن التنبؤ يتحقق رغم كل شيء، حيث ينتصر كلكامش الفتى على جده وينصب نفسه ملكاً على أوروك. لقد كان البطل الفتى ظاهرة رائعة:

"*بعد ان خلق كلكامش ، وأحسن الإله العظيم خلقه ، حباه (شمش) السماوي ، بالحسن وخصه (أدد) بالبطولة*

جعل الآلهة العظام صورة كلكامش كاملة تامة كان طوله أحد عشر ذراعاً وعرض صدره تسعة أشبار . ثلثان منه إله ، وثلثه الآخر نسر

وهيئة جسمه لا نظير لها "*

أجل كان كلكامش ملكاً صارماً. وشكى أهل أوروك بأنه يرسلهم إلى جبهات القتال ولا يدعهم في الهدوء والاستقرار لحظة واحدة. وعليهم جميعاً أن يعملوا في بناء سور المدينة. وبلغت شكواهم رب السماء آنوا. وبمساعدة الآلهة (آرورو) تم خلق بطل قوي باسم أنكيدو:

"*وأخيراً سمع الإله شكواهم*
فاستدعى آلهة السماء رب "أوروك" (وقالوا له)
ألم تخلق أنت هذا الوحش الجبار ؟
الذي لا يضاهي فتك أسلحته سلاح آخر
والذي تستيقظ رعيته على ضربات الطبل ،

---

* - اعتمدنا في ترجمة مقاطع من ملحمة كلكامش على ترجمة الأستاذ طه باقر والتي اعتمد فيها بدوره على النصوص البابلية الأصلية ، وذلك في كتابه "ملحمة كلكامش" ، بغداد ١٩٧١ . (ز د) .

كلكامش الذي لم يترك ابناً طليقاً لابنه
وما فتئ يضطهد الناس بمظالمه ليل نهار
على أنه هو (راعي) أوروك ، السور والحمى
هو راعيهم ولكنه يضطهدهم وهو قوي جميل وحكيم
إن كلكامش لم يترك عذراء لحبيبها
ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل
ولما استمع (أنو) الجليل إلى شكواهم
دعوا (أوروك) العظيمة وقالوا لها
يا (أوروك) ، أنت التي خلقت هذا الرجل بأمر (أنليل)
فاخلقي الآن غريماً يصارعه في قوة اللب والعزم
وليكونا في صراع مستديم لتنال (أوروك) السلام والراحة
حالما سمعت (أوروك) ذلك
تصورت في لبها صورة لآنو
وغسلت (أورورو) يديها وأخذت قبضة من طين ورمتها في البرية
وفي البرية خلقت (أنكيدو) الصنديد ، نسل ننورتا القوي
يكسو الشعر جسمه ، وشعر رأسه كشعر المرأة
ونمت فروع شعر رأسه جدائل متموجة كشعر نصابا
لا يعرف الناس ولا البلاد ويلبس لباساً مثل سموقان
ومع الظباء يأكل العشب
ويستقي مع الحيوان من موارد الماء

ويستدرج أنكيدو، بعد أن تفشل محاولات صيده من قبل الصيادين إلى المدينة بواسطة العاهرة "شمخة" وهناك تجري مصارعة عنيفة بين البطلين ينتصر فيها كلكامش فيعترف هذا بقوة غريمه فتنشأ بينهما صداقة.

ويبدآن فيما بعد بمغامراتهما في غابة الأرز المسحورة التي يحرسها العفريت خمبابا. وهناك ينتصران على خمبابا بمعاونة الاله (شمش) ويعودان إلى أوروك والبهجة تغمر قلبيهما. وتحاول عشتار أن تغريه لتجعل منه زوجها، إلا أنه يرفض ذلك لأنه يعرف المصائر التي آل إليها عشاق عشتار. وراح يحتقرها بالكلمات التالية:

"أي خير سأناله إذا أخذتك (زوجة) ؟
أنت! ما أنت إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد
أنت كالباب الخلفي لا يحفظ من ريح ولا من عاصفة
أنت قصر يتحطم في داخله الأبطال
أنت فيل يمزق (رحله)
أنت قربة تبلل حاملها
أنت حجر مرمر ينهار جداره
أنت حجر (يشب) يستقدم العدو ويغريه ؟
وأنت نعل يقرص قدم منتعله
أي من العشاق الذين اخترتهم من أحببته على الدوام ؟!

وغضبت عشتار من هذا الجواب القاسي، فالتجأت غاضبة إلى رب السماء (آنو) راجية منه أن يخلق ثوراً سماوياً يبعث الدمار على الأرض:

"إخلق لي يا أبتِ ثوراً سماوياً ليهلك جلجامش وإذا لم تخلق لي الثور السماوي فلأحطمن بابَ العالم الأسفل وأفتحه على مصراعيه وأدعُ الموتى يقومون فيأكلون الأحياء.. ويصبح الأموات أكثر عدداً من الأحياء.."

واستجاب الاله لدعائها فأطلق ثور السماء الذي راح يبعث الرعب بين الناس، فاضطر كلكامش وأنكيدو لكبح جماحه:

"فطارد "أنكيدو" ثور السماء ليمسك به
وأمسك به من ذيله وضبطه بكلتا يديه
وكلكامش مثل قصاب ماهر
طعن الثور السماوي طعنة قاتلة
وغرس حسامه ما بين السنام والقرنين
وبعد أن أجهزا على الثور السماوي اقتلعا قلبه
وقرّباه إلى الاله (شمش) وسجدا له
وقعد الاخوان كلاهما واستراحا

وبعد أن راحت الأحلام المرعبة تقلق أنكيدو ويتصور نفسه بين الموتى في العالم الأسفل، داهمه مرض سرعان ما قضى على حياته. وحزن جلجامش حزناً شديداً على صديقه وراح يبكيه:

"إسمعوني أيها الشيعة (الشيوخ)
من أجل أنكيدو ، خلّي وصاحبي ، أبكي وأنوح نواح الثكلى
إنه الفأس التي في جنبي وقوس يدي
والخنجر الذي في حزامي والمجن الذي يدرأ عني
وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي
لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني
خلّي وأخي الأصغر الذي اقتنص حمار الوحش في التلال
والنمور في الصحاري
(إنكيدو) صاحبي وأخي الأصغر
الذي اقتنص الوحش في النجاد والنمور في الصحارى
تغلبنا معاً على الصعاب وارتقينا أعالي الجبال
ومسكنا بالثور السماوي ونحرناه
قهرنا خمبابا الساكن في غابة الأرز
فأي سِنَةٍ (من النوم) هذه التي غلبتك وتمكنت منك ؟
طوال الظلام فلا تسمعني .)

وأخذ الخوف من الموت يغزو قلب جلجامش وراح يولي وجهه شطر طريق الخلود الصعب، حيث البشر العقارب يحرسون المداخل والمخارج لشمش. وبعد الرجاء والابتهال استطاع أن يحصل منهم على الموافقة لعبور الجبل المظلم. وبعد اجتياز المصاعب والمخاطر الكثيرة يبلغ كلكامش هدفه. وكان استقبال أتونا بشتم له ليس سيئاً فيسأله هذا عن سبب مجيئه ويجيبه كلكامش :

"صاحبي وخلّي الذي أحببته حباً جما
الذي رافقني في جميع الصعاب قد أدركه مصير البشرية
وأنا الآن سأكون مثله فأهجع هجعة لا أقوم من بعدها أبد الدهر"
ويواصل كلكامش سؤاله لمعرفة سرّ الخلود :
"قل لي كيف دخلت في مجمع الآلهة ونلت الحياة (الخالدة) ؟"

وبعد أن يروي له أتونا بشتم قصة الطوفان يطلب منه أن لا ينام ستة أيام وسبع ليالٍ حتى ينال الحياة الخالدة، ولكن وهو لا يزال قاعداً على عجزه إذا بسنة من النوم تأخذه وتتسلط عليه كالضباب فالتفت "أوتونا بشتم" إلى امرأته وخاطبها قائلاً:

"أنظري (تأملي) هذا الرجل القوي الذي ينشد الحياة! لقد أخذته سنة من النوم وتسلطت عليه كالضباب"

فأجابت زوج أتونا بشتم زوجها وقالت له:

"إلمس الرجل كيما يستيقظ

ويعود أدراجه سالماً في الطريق الذي جاء منه

ليعد إلى وطنه من الباب الذي خرج منه"

فأجاب "أوتونا بشتم" امرأته وقال لها:

"لما كان الخداع من سمة البشرية فإنه سيخدعك . فهلمي اخبزي له أرغفة الخبز وضعيها عند رأسه

وعلّمت (أشّرت) في الجدار الأيام التي نامها

فطار الرغيف الأول يابساً وتلف الرغيف الثاني

والثالث لم يزل رطباً

وابيضّت قشرة الرغيف الرابع

والخامس لم يزل طرياً والسادس قد تم خبزه في الحال

ولما كان الرغيف السابع لا يزال على الحجر لمسه فاستيقظ

(ولما استيقظ) كلكامش قال لـ (أتونا بشتم) القاسي :

"لم تكد تأخذني سنة من النوم حتى لمستني فأيقظتني"

فأثبتت له زوجة "أتونا بشتم" بأنه قد نام سبعة أيام. وأمر "أتونا بشتم"، أورشنابي "بأخذ كلكامش إلى موضع الاغتسال وإكسائه بملابس نظيفة. ويعود كلكامش إلى (أوروك) بصحبة أورشتابي خائباً. أجل، حتى أن نصف إله مثل كلكامش يمكن أن (ينهزم) أمام جبروت القدر ويقر حقيقة الموت التي لابد منها.

وقد عرف البابليون إلى جانب قصة الخليقة وملحمة كلكامش، مجموعة كبيرة من الميثولوجيا والأساطير. وفي أسطورة أدابا يجري البحث أيضاً عن الحياة الخالدة. وقد كانت كل أنواع الحكمة قد تجمعت عند أدابا ابن الاله أيا، إلا أنه كان محروماً من الخلود. كما ونسجت أساطير كثيرة حول إلهة الحب عشتار.

كانت الحكايات العديدة حول الملكين الإكاديين الكبيرين سرجون ونارام سين قد ابتعدت كثيراً عن الحقائق التي طمست في الأساطير، إذ إن شعراء القصر كانوا يبالغون في وصف ميلاد وأمجاد الملك لأسباب سياسية معينة.

ومن المواضيع التي كان يعالجها الأدب البابلي أيضاً مسائل الحكمة والدين وحياة وأخلاق الناس وكذلك الأمثال والطرائف والحوار. وهذه الحكايات مرحة تتخللها النكات. وفي النص التالي نرى كيف أن الخادم يتحول إلى ببغاء أمام سيده:

السيد: أيها العبد، اسمعني

الخادم: نعم يا سيدي، نعم

السيد: انصت لي إني أريد أن أحدث فتنة

الخادم: نعم، افعل هذا يا سيدي، افعل هذا!

إنكم إذا لم تحدثوا فتنة، فإن قدركم سيبقى فراغاً وإلا فمن الذي سيعطيكم شيئاً لتملأوا به بطنكم.

السيد: كلا، أيها العبد، إني لا أريد أن أحدث أية فتنة

الخادم: أجل، لا تفعل ذلك يا سيدي، لا تفعله. إن من التجأ إلى القوة سيقتل أو يعامل معاملة سيئة ويشوه جسده أو يلقى به في السجن.

السيد: أيها العبد، اسمعني

الخادم: نعم، يا سيدي، نعم

السيد: أريد أن أحب امرأة

الخادم: أحبب يا سيدي أحبب. إن الرجل الذي يحب امرأة ينسى الهموم والآلام.

السيد: كلا، أيها العبد، لا أريد، لا أريد أن أحب امرأة

الخادم: لا تحب يا سيدي، لا تحب، إن المرأة بئر. إن المرأة خنجر حديدي حاد يقطع رقبة الإنسان"

إن الأعمال الملكية الشعرية والنصوص الدينية التي تعتبر من ضمن الأدب البابلي، تعكس التجارب الحياتية ونظرة سكان وادي الرافدين إلى الكون، تلك النظرة التي تميزت بالشمولية والاتساع والخيال الخصب.

وكان الأدب البابلي يعتز بالتراث الذي يمتد إلى العصور السومرية الأولى ويستلهم منه قدرة المواصلة والإبداع. وكان عهد حمورابي الذي أعطى بابل لأول مرة الدور القيادي في التاريخ، مثالاً حياً يستمد منه الأدب البابلي قوته وأصالته.

النهاية

بعد أن اندحرت القوات البابلية قرب سبار، احتل كورش الثاني بابل في ٥٣٩ ق.م. أجل.. لقد شهدت بابل في عهد نجل نبوخذنصر، العظيم تدهوراً سياسياً، لعب دوراً حاسماً في استقلال ومصير الدولة. إن الحركات الصغيرة التي قمعها نبوخذنصر في عهده، راحت بعد موته تتسع وتشتد، وراحت الصراعات الداخلية بين الملوك وفئة الكهنة القوية تضعف البلاد. وكان الكهنة ولاسيما من ممثلي المعابد الكبيرة في أوروسا ولارزا يطمحون للعب الدور الرئيسي، وإعادة المكانة القديمة إلى آلهتهم إزاء الاله القوي مردوخ. وبعد اغتيال آخر ملك من سلالة نبوخذنصر بدأت الاضطرابات الداخلية تشتد في عهد الملك نبونيد. كان هذا متحمساً لاله القمر "زين" الذي يعبد في اوروحران بصورة خاصة. ورأى كهنة مردوخ الذين كان لهم تأثير قوي بأنهم قد أهملوا وراحوا يتهمون نبويند بالأخطاء الدينية تجاه إله الدولة الرسمي. ومن الجهة الشرقية على الحدود البابلية الفارسية، كانت الدولة الاخمينية يشتد بأسها بقيادة ملكها كورش وتهدد بغزو بلاد الرافدين. وحاول نبونيد أن يكسب تأييد قبائل البدو العربية إلا أنه لم يستطع أن يحقق أمنيته. ولما كان يعيش بعيداً لأعوام طويلة عن بابل وأهمل أعياد رأس السنة التقليدية، فقد تطورت ضده معارضة قوية في المدينة. وتعاون الكهنة مع عدو الدولة البابلية الملك الفارسي كورش وحثوه على التدخل. وتمكن كورش بسياسة الولاء والاعتراف بالاله القائم.. كسب تأييد المواطنين. كما

ضمن لليهود الذين جلبهم نبوخذنصر، العودة وبناء معبد لهم في أورشليم. وبقيت بابل مدينة اقتصادية زاهرة، حيث لم يستطع الحكم الفارسي أن يغير شيئاً في هذا المجال. وأعاد كورش تقليد الاحتفال بأعياد رأس السنة وسمّى نفسه (ملك بابل).

وواصل خلفه قمبيز نفس السياسة بنجاح. وفي مسيرة القرن السادس ق.م. كانت المشاكل الداخلية تهز الحكم الفارسي باستمرار تصعدها الانتفاضات القومية في بابل، إن قادة هذه الحركات التحررية يؤكدون بأنهم أحفاد وأتباع سلالة نبوخذنصر. وبعد الانتفاضة الأولى التي جرت في ٥٢١ ق.م. أعدم كورش قادة الحركة واكتفى بعقوبات طفيفة لبقية المشتركين والمؤيدين، إلا أنه بعد الحركة التي جرت في ٥٢ أعطى أوامره بنهب وسلب وسحق سكانها. ورغم سياسة الإبادة والاضطهاد فإن الحياة في بابل بقيت زاخرة.. وبقيت بابل عاصمة مهمة إلى جانب العاصمتين أكباتانا وسوسا الايرانيتين وراح يحكم من قصر نبوخذنصر والٍ فارسي. وغالباً ما كان الملوك الفرس يقيمون لفترات غير قصيرة في بابل.

إن هؤلاء الحكام يعطون أوامرهم بتشييد بعض الأبنية وبناء وترميم المعابد وبناء ملاحق جديدة للقصر وتعلموا طريقة استعمال الطابوق الملوّن المصقول. وراحوا يستعملونه في تجميل قصورهم في سوسا وبير سيبولس.

وبالنظر لدخول بابل ضمن الدولة الاخمينية فإنها راحت تتمتع بمكتسبات اقتصادية كثيرة، إذ تحولت إلى نقطة تربط بين بلاد الفرس والبحر الأبيض المتوسط. وازدهرت البنوك البابلية والشركات التجارية ازدهاراً كبيراً، وظهرت شركات كبيرة مثل شركة ايكيبي أو شركة موراششو وأولاده التي راحت تستعمل وسائل جديدة في التعامل وجلب الأرباح.

وهكذا لم يستطع الحكم الفارسي حتى هذه الفترة تقويض مركز بابل، إلا أنه في عام ٤٧٩ق.م. قامت حركة جديدة بقيادة شماش - اربا، الأمر الذي جعل الملك الفارسي xerxes كيسريكس يقوم بإجراءات قمع واسعة ورهيبة وينتزع من بابل استقلالها وأهميتها الدينية فسلبت مرة ثانية ونهبت وخربت أسوارها. وأسوأ ما جرى هو هدم المعبدين ايزالجيلا وايتيميناكي وتحطيم الاله مردوخ. وأصبح الاحتفال بأعياد رأس السنة بعد هذا التخريب الهمجي أمراً مستحيلاً، تلك الأعياد التي

كانت ضرورية جداً لديانة الدولة البابلية. وانتهت إلى الأبد مراسم لمس يد الاله مردوخ، التي قام بها الملك الفارسي أو ممثله حتى تلك الفترة. وتم إبعاد معظم الكهنة إلى خارج البلاد أو ألقي بهم في السجون.

وتحولت بابل إلى ولاية اعتيادية كبقية الولايات الخاضعة للحكم الفارسي وانتهى ارتباط المدينة المباشر بالملك وأبطل الملك لقبه كملك بابل.

إن هذه الإجراءات كلها لم تؤثر على الحياة التجارية لبابل. وبقيت كسابق عهدها مركزاً مهماً للتجارة والاقتصاد وبقي العديد من البيوت التجارية يواصل أعماله ويوسع نشاطاته ويكتب وثائقه بالخط المسماري، رغم انتشار اللغة والكتابة الآراميتين. وكان الكثير من المباني المهمة التي بقيت من عهد نبوخذنصر لا تزال تحتفظ بأهميتها. ويحتمل أن فيضاناً كبيراً قد غيّر مجرى نهر الفرات، الأمر الذي أدّى إلى طمس الكثير من معالم المدينة ومع ذلك فإن المدينة العظيمة كانت لا تزال تسترعي انتباه الزائرين ومنهم المؤرخ الإغريقي هيرودوتس الذي ترك وصفاً جميلاً للمدينة. ولكن لم يأت في وصفه ذكر شارع الموكب وباب عشتار ولا حدائق بابل المعلقة وربما لم يتمكن من الوصول إلى تلك المواقع، وقد كان مأخوذاً بموقع معبد ايزانجيلا والبرج المدرج والجسر الحجري على العراق ويظهر أن بابل حتى إلى عهد متأخر من بعد تلك الفترة تتمتع بالعظمة والروعة وكثرة السكان إلى الملك بالمقارنة مع الولايات الأخرى عالية جداً، وذلك بسبب وفرة الإنتاج الزراعي وازدهار التجارة والاقتصاد.

وراحت الإدارة ومكاتب الدولة العليا تنتقل بالتدريج إلى الأيادي الفارسية. وبدأ الفرس يهاجرون إلى بابل باستمرار. وازداد تأثير النفوذ الفارسي، ولكنه لم يستطع أن يغيّر الحضارة البابلية التقليدية تغييراً كلياً إن الطبقات البابلية العليا تواصل البناء، ولاسيما في محيط القصر الذي تحول إلى قلعة كبيرة. وشيدت بمرور الزمن قصور كثيرة. إن دفع الضرائب العالية إلى الحكام الفرس أدى إلى الارتفاع المستمر في الأسعار وإفلاس العديد من التجار فتدهور الاقتصاد وبقي المعبد هو الراعي الوحيد في الميدان.

وسقط الحكم الفارسي في بابل نتيجة غزو جديد استقبله البابليون بالترحاب

لقد كان على رأس الحملة الكسندر المقدوني الذي انتصر على الفرس في ٣٣١ ق.م. قرب كاومبلا، ودخل الرافدين بعد أن سجل الانتصارات في آسيا الصغرى وسوريا ومصر. وطمع البابليون في التحرر من الحكم الفارسي الأجنبي ليواصلوا حياة مستقلة غير خاضعة. وأعلن الإسكندر المقدوني نفسه في احتفال مهيب ملكاً على بابل. واعترف بشرعية الاله مردوخ. وأعطى أوامره لبناء وتعمير ما هدم من ايتمينانكي. وراح الفاتح الكبير يأمل بجعل بابل التي طبقت شهرتها الآفاق، عاصمة إمبراطوريته العالية المقبلة وبعد أن عاد الإسكندر من حملة الهند بدأ بتعمير المدينة بأكملها وتنظيفها من آثار الخرائب وأشرك الجيش كله في حملة التعمير هذه. إلا أن خطط ومشاريع الاسكندر الفتى لم تتحقق، إذ عاجلته المنية وهو في ريعان الشباب. وتوقف قلبه عن الحركة في بابل في ١٣ حزيران ٣ و٣ ق.م.

وحاول أخلافه مواصلة نفس السياسة التي اتبعها وأعطوا أوامرهم لمواصلة البناء في بابل، وعندما أسس سليكوس الأول امبراطوريته التي تجمع بلاد الرافدين وإيران وسورية، انتهى دور بابل كعاصمة، إذ إنه بدأ ببناء عاصمة جديدة على نهر دجلة باسم سلوقية لا تبعد كثيراً عن بابل، وبعد أن تم بناء المدينة توجب على القسم الأكبر من سكان بابل الهجرة إلى هناك، وانخفض عدد سكان بابل بشكل ملحوظ، وبالرغم من ذلك فإن الملوك السلوقيين لم يهملوا بابل، وراحت معالم الحضارة الإغريقية تترك آثارها في العديد من المجالات ولاسيما في الإنتاج اليدوي واستوطن العديد من الإغريق بابل، وأخذت تقاليد الحضارة البابلية تبعث من جديد، وكان استعمال الكتابة المسمارية نادراً، وقد كتب لأحد كهنة معبد مردوخ المسمى بيروسوس في القرن الثالث ق.م. قصة بابل باللغة الإغريقية.

وبعد سقوط الدولة السلوقية وقعت بابل عام ١٤٠ ق.م. في أيدي البارثيين الذين اجتازوا الحدود الشرقية إلى الفرات، وهنا استمر الصدام بين أوربا والشرق لعدة قرون، وحدثت معارك عديدة بين جيوش الامبراطورية الرومانية والبارثيين. وغالباً ما كانت تتحول بابل إلى ساحة مفتوحة لهذه المعارك الراقية، أما الرومان فيمثلون لفترات قصيرة في بابل (في ١١٥ م حكم الامبراطور الروماني ترايان وفي ١٩٩ م سبتيموس سيفيروس).

ويحتمل أن بابل كانت حتى هذه الفترة تترك عند الزائر انطباعاً حسناً إلا أنها في كل الأحوال لا تقارن بمجدها وروعتها الماضيين، ولم تعد بابل تلعب دورها الاقتصادي والسياسي والديني كالسابق سيما أنها كانت تقع على حافة الدولة البارثية، وببناء مدينة طيسفون التي لا تبعد كثيراً عن بابل ارتفع شأن الأخيرة؟ وحتى القوافل التجارية نفسها لم تعد تمر بالعاصمة القديمة بابل ولا تريد أن تعرف عنها شيئاً، وتحولت بابل إلى خرائب تتخللها بيوت بدائية وأكواخ حقيرة تحيطها الأسوار المهدمة وراحت البقية الباقية من السكان البابليين - الآراميين تختلط بالنازحين الجدد أو تطرد من المدينة وربما تقتل، وكان تأثير النفوذ البارثي والاغريقي كبيراً في المدينة، بحيث أصبح المتكلمون باللغة البابلية ومستعملو الكتابة المسمارية يشكلون أقلية صغيرة، أي أنه تلاشت هذه الكتابة نهائياً في القرن الأول الميلادي، وعندما سقط البارثيون عام ٢٢٧ ق.م. أمام الساسانيين القادمين من إيران لم يجر أي تغيير بالنسبة لبابل، وكانت المدينة قد فقدت أهميتها بحيث لم تعد بعد قادرة على النهضة ولعب دورها التاريخي في العهد الساساني إذ بلغت من التدهور شأناً لم تستطع معه الانتعاش أيضاً عند بدء الفتح العربي الإسلامي في ٦٢٤م.

ورغم أن مواضيع بابل القديمة أصبحت في طيّ النسيان: إلا أن تأثيرها كان قوياً على شعوب وادي الرافدين وامتد عبر أجيال وقرون طويلة، إذ إن الحضارة البابلية الأصلية المتشعبة التي مدت جذورها في أرجاء العالم القديم لم تكن سهلة الاقتلاع، ولم تشع الحضارة البابلية على الشعوب المجاورة لها فحسب، بل شعاعها إلى الشعوب والدول الأوروبية إلى جانب تأثيرها الكبير على شعوب إيران والهند.

وكان للوضع الاقتصادي القوي والدور السياسي الكبير اللذين لعبتهما بابل في الألف الثاني ق.م. تأثير كبير في انتشار الكتابة المسمارية واللغة البابلية التي تحولت إلى لغة التعامل الرسمي في العالم القديم.

ولعب عهد الكسندر المقدوني دوراً كبيراً في احتكاك حضارتي الشرق بالحضارة الإغريقية إذ جرى بينهما تأثير متبادل وكان الأجانب يسمعون القصص والميثولوجيا البابلية، ويتعلمون الأساليب الاقتصادية والتجارية المتطورة في البلاد. وتعلم الفرس الكثير من البابليين، ولاسيما أساليب المنظمات والمؤسسات الاقتصادية

وأسس التجارة، وراحوا يستعملونها حتى بعد زوال الدولة البابلية. وانتفع الاغريق والرومان من هذه الخبرات، وتأثر بعض جوانب الحضارة الأوروبية في العصور المتأخرة بحضارة الشرق، فمثلاً إن تذكرنا الكنائس المسيحية الأولى بالمعابد البابلية الكلاسيكية ولم يبخل نظام الحصون البابلية من التأثير على الحصون الأوروبية المتأخرة، ويمكن للمرء أن يلمس بوضوح تأثير فن الشرق القديم على الفن الاغريقي وفن القرون الوسطى، وكان هذا الفن متأثراً بالدرجة الأولى بالفن السومري والبابلي، وأما بأية وسيلة وكيف جرى الاكتساب والتأثر من قبل الشعوب الأخرى فمسألة مازالت غير معروفة، إلا أن حقيقة واحدة لا يمكن طمسها وهي أن الأصول كلها تعود إلى المشرق القديم، وتركت الأشكال المحفورة على الأختام الأسطوانية على مرّ القرون بصماتها بشكل ملحوظ على الفن الروماني والبيزنطي وفن القرون الوسطى حسب، بل على النحت الحديث أيضاً.

وامتدت شعارات الأدب والعلم من وادي الرافدين إلى أوروبا ، وقد ظهر تأثير علم الفلك البابلي - الكلداني مؤخراً وبصورة جلية على العلماء الإغريق الذين واصلوا تطويره، وكان الكتاب والعلماء الاغريق والرومان يرجعون دائماً إلى المصادر البابلية لدعم آرائهم وأعمالهم بفقرات وأقوال مقتبسة من الأدب البابلي، إن أسماء النجوم والكواكب ودائرة البروج كلها على الأغلب بابلية الأصل. وحتى قراءة المستقبل بواسطة كبد الحيوان، اقتبسها الرومان في حينه من البابليين، وإلى وقت متأخر من القرون الوسطى كانت أساليب السحر البابلية تستعمل في أوروبا.

ولعب عالم الميثولوجيا البابلية الزاخرة دوراً كبيراً في التأثير على ميثولوجيا الشعوب الأخرى. ويمكن ملاحظة التأثير على الأساطير الإغريقية بوضوح، وهناك تشابه كبير في مغامرات البطلين كلكامش وهرقل ولم تقتبس الشعوب المجاورة من الحكايات والأساطير البابلية فحسب، بل من الكتاب الاغريق أيضاً، وكان البابليون هم الذين أوجدوا شخصية "الثعلب الماكر" المعروفة في قصص الحيوانات وفي أدب الحوار المتخاصم نلاحظ تأثر الشاعر الاغريقي كاليما خوف بالحوار البابلي الجاري بين النخلة وشجرة التمر هندي، حيث يبدو ذلك واضحاً في حواره الجاري بين شجرة اللورمبر والزيتون.

ولم يكتف الأدب البابلي بذلك كله فحسب، بل وجد طريقه الرحب إلى كتب التوراة والإنجيل التي أصبحت نتيجة الانتشار الواسع جزءاً من الديانة الأوروبية، وذلك قبل أن يتم التنقيب عن الألواح الطينية بفترة طويلة، إن التصور الوارد بأن العالم قد خلق من الفوضى والبشر من الطين، ثم معاقبة الاله بعد ذلك للبشر بطوفانه العظيم نتيجة ذنوب الخ.. الخ. كلها بابلية الأصل، وهكذا احتفظ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد باسم بابل حتى يومنا هذا، ومن خلال وصفه لعظمة وروعة المدينة الحلم، أعطى زخماً وشوقاً للبشرية مستمرين، للبحث عن بابل والتنقيب فيها..

إن اسم بابل سيبقى خالداً إلى الأبد..

الفهرس